

بلاد القنفذة في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين

(ق ٥- ق ١٥ هـ / ق ١١ - ق ٢١ م) (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : بلاد القنفذة خلال خمسة قرون

(ق ١٠ - ق ١٥ هـ / ق ١٦ - ق ٢١ م) (دراسة تاريخية حضارية) ،
لغيثان بن جريس، (الطبعة الثانية) (الرياض : مطابع الحميضي،
١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م)، ص ص ١٤٧ - ٢٠٩.

القسم الثالث



القسم الثالث

بلاد القنفذة في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين (ق ٥ - ق ١٥ هـ / ق ١١ - ق ٢٠ م)

١٤٩

القسم الثالث : بلاد القنفذة في عيون بعض الرحالة المسلمين وغير المسلمين (ق ٥ - ق ١٥ هـ / ق ١١ - ق ٢٠ م)

الصفحة	الموضوع	
١٥٠	تمهيد	أولاً :
١٥٢	التعريف بالرحالة ومدوناتهم	ثانياً :
١٥٢	١- ناصر خسرو (ق ٥ هـ / ١١ م)	
١٥٤	٢- ابن بطوطة (ق ٨ هـ / ١٤ م)	
١٥٦	٣- السلطان الملك المجاهد الرسولي (ق ٨ هـ / ١٤ م)	
١٥٧	٤- العباس بن علي الموسوي (ق ١٢ هـ / ١٨ م)	
١٥٩	٥- يحيى بن المطهر (ق ١٢-١٣ هـ / ١٨-١٩ م)	
١٦٠	٦- محسن بن عبد الكريم إسحاق (ق ١٢-١٣ هـ / ١٨-١٩ م)	
١٦٣	٧- إسماعيل جفمان (ق ١٣ هـ / ١٩ م)	
١٦٧	٨+٩- السير كيناهان كورنواليس، وروبن بدول (ق ١٣-١٤ هـ / ١٩-٢٠ م)	
١٧١	١٠- الشريف البركاتي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م)	
١٧٥	١١- الشريف عبد الله بن الحسين (ق ١٤ هـ / ٢٠ م)	
١٧٦	١٢- هاري سانت جون فلبلي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م)	
١٨١	١٣- ك. س. توتيشل (ق ١٤ هـ / ٢٠ م)	
١٨٢	١٤- ولفرد تسيجر (ق ١٤ هـ / ٢٠ م)	
١٩٤	١٥- عبد الله العمودي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م)	
١٩٥	١٦- عاتق بن غيث البلادي (ق ١٤-١٥ هـ / ٢٠ م)	
١٩٧	١٧- يحيى بن إبراهيم الألمعي (ق ١٤-١٥ هـ / ٢٠ م)	
١٩٩	وقفزة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم	ثالثاً :
١٩٩	١- تنوع ثقافتهم	
٢٠٠	٢- المصادر والمنهج المستخدم في جمع مادة المدونات :	
٢٠١	٣- دراسة ومقارنة مدونات الرحالة	
٢٠٩	الخلاصة	رابعاً :

أولاً : تمهيد :

تتميز جزيرة العرب بموقع استراتيجي يربط بين شرق العالم وغربه، لذا كانت مطمئناً لكثير من القوى السياسية منذ عصور التاريخ القديم^(١). وبعد أن أصبحت المدينة المنورة (يثرب) العاصمة الأولى للإسلام، وازدهر تاريخها الإسلامي العقدي والحضاري، وصارت بلاد الحرمين قبلة عموم المسلمين قاطبة، ازداد الاهتمام بها، وصارت جميع قوى الأرض تولي هذه البلاد كبير اهتمام^(٢). ولسنا في هذه الدراسة بصدد الإسهاب في الطرق والأهداف التي جعلت الأمم الإسلامية وغير الإسلامية تحرص على الاتصال بهذه الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام حتى يومنا الحاضر، وإنما الذي سوف نركز عليه هو الرحلات ودور الرحالين في زيارة ودراسة نواح عديدة من جزيرة العرب، وحتى نكون عمليين وعلميين فدراستنا سوف تنصب على بعض الأجزاء التهامية الواقعة على ساحل البحر الأحمر الشرقي وعلى وجه التحديد على بلاد القنفذة الممتدة من جنوب الليث إلى بلدة البرك جنوباً مشتملة على الأجزاء الداخلية لهذه المنطقة التي تمتد شرقاً إلى سفوح جبال السروات الغربية الواقعة إلى الشمال من تهامة عسير^(٣).

سوف نستعرض معظم الرحالين المسلمين وغير المسلمين الذين ذكروا أو جاؤوا إلى بلاد القنفذة منذ القرون الإسلامية الأولى حتى عصرنا الحديث والمعاصر، وبعد الاطلاع في سجلات ومحتويات المكتبات العربية والأجنبية استطعنا حصر سبعة عشر رحالة لهم كتب أو دراسات أشاروا فيها إلى منطقة القنفذة منذ القرن (٥هـ/١١م) حتى القرن (١٥هـ/٢٠م)، ولن نهمل في دراسة هذه الكتب أو تحليل كل ما ذكرت أو أشارت إليه عن القنفذة، لأن البعض من هؤلاء الرحالين أورد الكثير من التفاصيل

(١) للمزيد عن أهمية الجزيرة العربية قبل الإسلام، انظر: جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد : جامعة بغداد ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ج ١ ، ص ٥٢٩ وما بعدها . ج ٢ ، ص ٧٣٠ ، سبتينوموسكاني . الحضارات السامية القديمة . ترجمة السيد يعقوب بكر (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، د . ت) .

(٢) من يستقرئ عصور التاريخ الإسلامي يجد جميع الأمم والدول الإسلامية التي كانت في شرق العالم وغربه كانت تحرص على الاتصال بالحرمين وأهله، ناهيك عن عموم المسلمين في أقطار الأرض فقلوبهم تهوي إلى بلاد الحرمين لاحتضانها الكعبة المشرفة وقبر الرسول الكريم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

(٣) بخاصة بلاد العرضيتين (الجنوبية والشمالية) التي تقع عند سفوح السروات الغربية لبلاد خثعم وشمران وبلقرن. للمزيد انظر: ابن جريس . القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) ج ٢ ، ص ٣٩٨ وما بعدها .

عن هذه الناحية، وبالتالي إذا أطلقنا العنان لأنفسنا فإننا قد نخرج دراسة مطولة تقع في مئات الصفحات، وحتى لا نسير في هذا الاتجاه فإننا سوف نركز البحث على إشارات نذكر فيها تراجم موجزة لكل رحالة، ثم نشير إلى أهم ما اشتملت عليه رحلته عن منطقة القنفذة . وقد استقر أمرنا على هذا الرأي لعدة أسباب منها :

١. أن هذا العمل العلمي بحث مختصر سوف ينشر في مجلة علمية أو كتاب أكاديمي علمي، ومن ثم فلا بد من الالتزام بصفحات محددة لهذا الغرض.

٢. التنبيه إلى أهمية بلاد القنفذة عبر التاريخ الإسلامي الوسيط والحديث والمعاصر، والإشارة إلى أنها كانت تحتضن الكثير من المستوطنات البشرية، وإن البعض من الرحالة وأرباب القلم كانوا يأتون إليها، ويتجولون في أرضها ويكتبون تاريخها .

٣. الإشارة إلى الكثير من النقاط والقضايا والتواريخ السياسية والحضارية التي دونها هؤلاء الرحالة . وهذا مما يفتح أبواباً للباحثين أو طلاب وطالبات برامج الدراسات العليا في جامعاتنا فيتخذوا من هذه الموضوعات أو الأحداث عناوين لأطروحاتهم العلمية، وعندئذ يتوسعون في دراسة ما أشرنا إليه، أو يصححون ما وقع فيه الرحالة أو وقعنا فيه من قصور وأخطاء علمية أو منهجية، ومن ثم يتم إثراء الساحة العلمية والفكرية والثقافية في بلادنا ^(١).

٤. لا ندعي أننا أحطنا بمدونات كل العلماء والرحالين الذين زاروا القنفذة، وإنما نتطلع إلى من يصحح أو يستكمل ما وقعنا فيه من أخطاء، أو ما لم نطلع عليه ونستطيع إدراجه ضمن هذا البحث . ونحن على يقين أن هناك أدباء ورحالة جابوا منطقة القنفذة ولم نعثر على أعمالهم العلمية حتى الآن، ونتمنى أن يأتي بعدنا من يدرس هؤلاء الرحالين دراسة مستفيضة، ويستكمل أعمال جميع العلماء والرحالة الذين لم يردوا معنا في هذا العمل العلمي ^(٢).

(١) بلاد القنفذة من المناطق البكر إن صح التعبير في باب الدراسة والبحث، ومن يتخذها مجالاً لدراساته التاريخية والأدبية والحضارية والفكرية فإنه - بدون شك - سوف يجد مجالاً جيداً وجديراً بالبحث والتقصي والدراسة .

(٢) هناك فقهاء وأدباء وعلماء وساسة ورجال دولة عرفوا أو اجتازوا منطقة القنفذة، وقد يكون لهم مدونات أو أقوال وأشعار متناثرة في كتب التراث، بهذا أن يأتي من أبنائنا وطلابنا من يبحث هذا الموضوع بطريقة علمية أكاديمية مستوفاة ويستحق أن يصدر في كتاب مستقل أو رسالة علمية .

ثانياً : التعريف بالرحالة ومدوناتهم :

١ - ناصر خسرو (ق ٥ هـ / ١١ م) :

هو معين الدين ناصر خسرو بن حارث القبادياني المروزي، أحد أشهر الرحالة المسلمين في القرن (٥هـ/١١م)، ولد في بلدة قباديان من نواحي بلخ عام (٣٩٤هـ/١٠٠٣م) وتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) في أقصى بلاد الأفغان عند حدود كشمير^(١)

نشأ أول حياته نشأة عريقة في أسرة فارسية، حفظ القرآن، وتعلم شيئاً من الخطب والأشعار العربية، ثم آلت به الأمور إلى العمل في بلاط الدولتين الغزنوية والسلجوقية، كان معظم عمله في دواوين هاتين الدولتين^(٢). خلف هذا الرحالة الكثير من الأعمال العلمية وأغلبها ضاع، أما الذي وصل إلينا فهي قليلة جداً، مثل: زاد المسافر : وهو من أمهات علم الكلام في المذهب الإسماعيلي، وكتاب الديوان، وقد جمع فيه الكثير من شعر شعراء الفرس في القرن (٥هـ/١١م)^(٣)، وكتاب سفرنامه، وهو الرحلة التي قام بها لعدة سنوات (٤٣٧ - ٤٤٤هـ/٩٤٨ - ١٠٥٢م)، وذكر فيها الكثير من النواحي التي زارها في البلاد الشرقية من الخلافة العباسية، وبقايا الغزنويين في القارة الهندية، وبلاد الأفغان اليوم، وأشار في حديثه إلى أجزاء من آسيا الصغرى، والشرق الأدنى، ونواح من العراق وإفريقيا وبخاصة بلاد تونس ومصر، كما زار الجزيرة العربية في عام (٤٤٢هـ/١٠٥٠م)، وتقل ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف واليمامة والإحساء والبحرين وغيرها^(٤).

وهذا الرحالة لم يزر بلاد القنفذة، ولم يتحدث عنها بشكل مباشر، لكنه أشار إلى المنطقة التهامية الممتدة من مكة المكرمة إلى عدن، التي تقع منطقة القنفذة ضمن هذا الجزء الساحلي، فقال: " أرض العرب تمتد من الكوفة إلى مكة، أما من مكة إلى عدن

(١) معين الدين ناصر خسرو . سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) القبادياني ترجمه من الفارسية إلى العربية أحمد خالد البدلي (الرياض : عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) . انظر: مقدمة المترجم، ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه، ٦٠٥ .

(٣) المصدر نفسه، ٢١٠ - ١٧ .

(٤) المصدر نفسه، ص ٩ وما بعدها .

فيسمى أرض حمير^(١). ويذكر أن سكان هذه البلاد قبائل صحراوية، وهم أهل إبل وماشية ومساكنهم الخيام^(٢). ويقسم هذا الرحالة بلاد حمير التي أشار إليها في رحلته إلى ثلاثة أقسام:

- (*) **الأول** : يقع على ساحل البحر الأحمر، وذكر أن به مدناً عامرة .
- (*) **الثاني** : نجد ونواحيه، وهي شديدة البرودة وبها مضائق جبلية وحصون محكمة .
- (*) **الثالث** : شرق تهامة ويوجد به قرى كثيرة، وبواد لا تدخل تحت الحصر .

وذكر أن في كل بادية حاكماً مستبداً لا يخضع لأي سلطة مركزية، وتكثر في هذه النواحي السرقة والنهب، وبها أعداد كثيرة من السكان^(٣).

(*) **ومن هذه الإشارات المختصرة لهذا الرحالة، خرجنا بالعديد من**

النتائج والآراء :

أ - هذه الرحلة حفظت الكثير من التفاصيل القيمة عن الجزيرة العربية وبخاصة بلاد الحجاز ونجد والبحرين، أما ما أشار إليه صاحب الرحلة (خسرو) من البلدان الواقعة جنوبي الطائف ومكة المكرمة، فمن الثابت أنه لم يزر هذه الديار وإنما جمع معلوماته عنها من بعض الحجازيين والنجديين، الذين لم يكونوا هم دقيقين في رواية معلوماتهم^(٤). ومن ثم فقد وقع في أخطاء عديدة، لأنه خلط في وصفه لهذه البلاد بين السهول الساحلية والمناطق المرتفعة من بلاد السراة وما يأتي شرقها^(٥)، وقوله بلاد حمير من مكة إلى عدن فهذا غير صحيح، لأن المتأمل في أنساب سكان هذه البلاد يجدها خليطاً من القبائل العدنانية والقحطانية، وليست جميعها حميرية يمانية كما ذكر خسرو^(٦).

(١) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ١٤٢ .

(٥) للمزيد من التفاصيل عن تاريخ بلاد تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيلة، انظر:

كتابي ابن جريس عن هذه البلاد من القرن (١٠١ هـ / ١٦٠٧ م) . جزء ان ، كما انظر سلسلة كتاب (القول

المكتوب في تاريخ الجنوب) (٢٢ مجلدا)

(٦) المصدر نفسه .

ب - نتفق مع هذا الرحالة في وصفه بعض الأجزاء السروية أو الشرقية من بلاد تهامة والسراة، وبخاصة ما يتعلق بشدة برودة جوها في الشتاء، أما الصيف فجوها لطيف ومعتدل^(١). وما يوجد بها من حصون وقلاع حصينة ومضايق جبلية، أما هيمنة القبائل على هذه النواحي، فالشيوخ والأعيان في السابق كانوا أصحاب الحل والعقد في بلادهم^(٢).

ج - لم يرد عند خسرو أي إشارة لأي جزء من بلاد القنفذة وبخاصة مواطنها القديمة مثل: حلي، ودوقة، وعشم، والبرك، وضنكان، وقنونا، وبية وغيرها^(٣)، لكنها - في اعتقادي - ليست بعيدة في تركيبها السكانية عما كان عليه غيرها من البطون والعشائر في البلاد الشرقية أو السروية. ويبدو لوقدر لهذا الرحالة التقدير زيارة جنوبي الطائف ومكة بما فيها موضوع بحثنا (القنفذة) فإنه بدون شك سوف يكون حفظ لنا الشيء الكثير من تاريخ وحضارة هذه الديار.

٢ - ابن بطوطة (ق ١٤ هـ / ١٤ م) :

هو محمد بن عبد الله اللواتي، يكنى بأبي عبد الله، وابن بطوطة شهرة اشتهر بها هو وأسرته. ولد في مدينة طنجة على مضيق جبل طارق بشمال المغرب عام (٧٠٣ هـ / ١٠٣٤ م) وتجول في العديد من الأقطار في قارات: آسيا وأوروبا وإفريقيا، وزار الجزيرة العربية عدة مرات، وحج ست مرات ومات عام (٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م)^(٤).

في إحدى رحلاته من بلاد السودان إلى بلاد اليمن نجده ينزل في بلاد حلي ابن يعقوب بمنطقة القنفذة عام (٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م)، ويدون لنا معلومات قيمة نادرا لا نجدها في أي مصدر آخر، شرح فيها بعض ما شاهده في بلاد حلي، فقال : " وبعد ستة أيام من خروجنا من جزيرة سواكن وصلت مدينة حلي، وتعرف باسم حلي

(١) مشاهدات الباحث وتنقله في أرجاء هذه البلاد خلال الخمسة العقود الماضية

(٢) هذا ما وجدته الباحث في مئات الوثائق التي يكتنيها وجمعها خلال القرون الماضية عن هذه البلاد .

(٣) للمزيد عن هذه المواضع انظر القسمين الأول والثاني في هذا الكتاب ، كما أن هذه الأماكن قديمة في تاريخها وذكرها في كتب التراث الإسلامي ، وجديره أن يصدر عن كل موضع دراسة علمية مطلوه.

(٤) استغرقت رحلات ابن بطوطة حوالي خمس وعشرين سنة، ووصلنا كتابه الرحلة المسمى : تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . حقق أكثر من مرة، وترجم إلى العديد من اللغات، واعتمدنا على طبعة (بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) (تحقيق علي المنتصر الكتاني) ، (انظر : الجزء الأول من كتاب الرحلة)

ابن يعقوب، وكان من سلاطين اليمن ساكناً بها قديماً، وهي كبيرة حسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وكنانة^(١)، وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين، لباسه مرقعة وقلنسوة لبد، وله خلوة متصلة بالمسجد، فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط، ولم أر بها حين لقائي له شيئاً، إلا إبريق الوضوء، وسفرة من خوص النخيل فيها كسرة شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر، فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك، ويسمع به أصحابه فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء، وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب، وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقعه للتفعل، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الآخرة، فإذا صلوا العشاء الآخرة أقاموا على الذكر إلى ثلث الليل، ثم انصرفوا، ويعودون في أول الثلث الثالث إلى المسجد، فيتهجدون إلى الصبح، ثم يذكرون إلى أن تحين صلاة الإشراف، فينصرفون بعد صلاتها، ومنهم من يقيم إلى أن يصلي صلاة الضحى بالمسجد، وهذا دأبهم أبداً، ولقد أردت الإقامة معهم باقي عمري ولم أوفق لذلك، والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه^(٢).

وسلطان حلي، عامر بن ذؤيب، من بني كنانة، وهو من الفضلاء والأدباء والشعراء، سافرت في حجته من مكة إلى جدة، وكان قد حج في سنة ثلاثين^(٣)، ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني، وأقامت في ضيافته أياماً...^(٤).

في هذه الخلاصة نجد هذا الرحالة البارع يشرح لنا بعض الصور الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي كانت سائدة في بلاد حلي بن يعقوب، بل أشار إلى أمير تلك البلاد ابن ذؤيب الذي ذكر أنه كان على مستوى جيد من الأخلاق، بل كان من العارفين بعلوم الشعر والأدب^(٥).

(١) للمزيد من التفاصيل عن حلي بن يعقوب انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج ١، ص ٢٧١.

(٣) أي عام (٧٢٠ هـ / ١٣٢٩ م).

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ج ١، ص ٢٧١.

(٥) بلاد حلي بن يعقوب، التي هي جزء من محافظة القنفذة اليوم، كانت على مستوى جيد من الرقي والتحضر، وقد حلت محلها بلدة القنفذة منذ القرن (١٠ هـ / ١٦ م). للمزيد من التفاصيل انظر القسم الثاني من هذا الكتاب، حيث أن نرى باحثاً جاداً يدرس بلاد اليمن والحجاز وما بينهما في رحلة ابن بطوطة فذلك موضوع جيد يستحق الدراسة والتحليل.

٣. السلطان الملك المجاهد الرسولي (ق ٨هـ / ١٤ م) :

رحلة السلطان الملك المجاهد الرسولي من تعز إلى مكة المكرمة في الفترة الممتدة من شهر شوال ٧٤٢ هـ إلى شهر صفر ٧٤٣ هـ / ١٣٤١-١٣٤٢ م^(١). والسلطان الأشرف أبو العباس الرسولي، قام بتدوين رحلة السلطان الملك المجاهد^(٢)، وضمنها كتابيه : فاكهة الزمان ومفاكهة الآداب، والفتن في أخبار من ملك اليمن^(٣).

هذه الرحلة استغرقت (٥٩) يوماً من تعز إلى مكة ذهاباً وإياباً برأ، وقد ورد في ثنايا الرحلة الكثير من المعلومات عن طبيعة المحطات الرئيسية على الطريق الساحلي الذي يربط بين اليمن والحجاز، وهناك إشارات أخرى لبعض الشخوص الذين رافقوا أو قابلوا السلطان في سفره^(٤).

وفي رحلة السلطان في بلاد القنفذة ذكر المؤلف العديد من المحطات التي مر عليها الملك المجاهد، مثل : حمضة، وذهبان، والدبسا، وحلي بن يعقوب، ودوقة حتى وصل إلى الليث ثم ميقات أهل اليمن يلملم (السعدية)^(٥). وفي العودة أشار إلى قنونا التي لم يشير إليها في الذهاب^(٦).

(١) السلطان الملك المجاهد سيف الإسلام أبو الحسن علي بن الملك المؤيد هزبر الدين داود بن الملك المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي الرسولي، ولد سنة (٧٠٦هـ / ١٣٠٦م) أحد حكام الدولة الرسولية، التي حكمت اليمن أكثر من قرنين من الزمان (٦٣٠هـ - ٨٥٨هـ / ١٢٣١-١٥٤٠م). وتولى السلطة أكثر من أربعة عقود (٧٦٤-٧٢١هـ / ١٣٦٢-١٣٢١م). للمزيد انظر: كتاب العقود للؤلؤة، للخزرجي ج ١، ص ٢ وما بعدها، العقد الثمين للفاسي ج ٦، ص ١٥٨-١٧٤، وبلاد تهامة والسراة أثناء عصر الدولة الرسولية تستحق أن تدرس في هيئة كتاب أو بحث علمي موثق.

(٢) هو السلطان الأشرف أبو العباس بن الأفضل العباس بن المجاهد علي بن المؤيد بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي الرسولي ولد سنة (٧٦١هـ / ١٣٥٩م) تولي السلطة بعد وفاة ولده الأفضل ودام حكمه حوالي (٢٥) سنة (٧٧٨-٨٠٢هـ / ١٣٧٦-١٤٠٠م). انظر: با مخرمة . تاريخ ثغر عدن . تحقيق أوسكر لوفغرين (بيروت : منشورات المدينة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م)، ج ٢، ص ٢٠.

(٣) للمزيد انظر: محمد بن عبد الرحمن الثنيان . رحلة السلطان الملك المجاهد الرسولي من تعز إلى مكة المكرمة . مجلة الدارة . العدد (١)، سنة (٢٥) (١٤٢٠هـ) ص ١١٧-١٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٥) هذه المواقع مازالت تحمل الأسماء نفسها حتى اليوم، وتقع في البلاد الممتدة من القحمة جنوباً إلى السعدية (يلملم) جنوباً . مشاهدات الباحث لهذه المواقع في الفترة الممتدة من (١٤٢٤-١٤٣١هـ / ٢٠٠٣-٢٠١٠م) . للمزيد انظر: البلاد، ص ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٦-٢٢٩، ٢٣٣ . محمد بن بليهد . صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار (الرياض، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ج ٢، ص ٩٣.

(٦) المصادر نفسها ، كل المواضع التي ذكرت في هذه الرحلة جديرة بالبحث .

وهذه الرحلة في مجملها تشير إلى تفصيلات قيمة على طول الرحلة من تعز إلى مكة، إلا أننا لا نجد أي إضافات ذات قيمة علمية فيما يخص بلاد القنفذة، اللهم إلا ذكر أسماء بعض المحطات. كما أسلفنا، ومثل هذه الأسماء وردت بشكل أدق وأفضل في كثير من كتب التراث الإسلامي المبكر وبخاصة كتب الجغرافيا والرحلات^(١). ويبدو أن صاحب الرحلة كان يتوقف في بعض المحطات، مثل: حلي بن يعقوب ودوقة وما جاورها فيوزع بعض الهدايا والهبات، لكن لا نعلم هل كان هذا التوزيع يشمل عليه القوم في تلك النواحي فقط، أم أن عامة الناس كان ينالهم نصيب منها. ولم نجد لصاحب الرحلة أي جهود تاريخية أو حضارية تذكر مع أهالي بلاد القنفذة وما جاورها^(٢).

٤. العباس بن علي الموسوي (ق ١٢ هـ / ١٨ م) :

العباس بن علي بن نور الدين بن أبي الحسن المكي الحسيني الموسوي، ولد وعاش في مكة المكرمة، رحل سائحاً في العراق والهند واليمن من سنة (١١٣١ - ١١٤٢ هـ / ١٧١٨ - ١٧٢٩ م)، وانتهى به المطاف في التردد بين بندر المخا ومكة، ثم استقر في المخا سنة (١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م)، وانصرف إلى جمع ما لديه من أوراق وسجلها في رحلته المسماة: نزهة المجلس ومنية الأديب الأنيس، في مجلدين انتهى منه في (٤) شوال (١١٤٨ هـ / ١٧٣٥ م)، وجعله هدية إلى والي بندر المخا^(٣).

وفي شهر شوال (١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م) انفرد الموسوي بوصفه الطريق من الطائف إلى تهامة^(٤). وأشار إلى بعض النواحي في تهامة غامد وزهران، مثل قرية الخليف^(٥)، ثم

(١) لمزيد من التوضيحات عن أسماء محطات الحج والتجارة على الطريق الساحلي بين اليمن والحجاز، انظر: غيثان بن جريس "بلاد تهامة والسراة كما وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون الأوائل (ق ٣ هـ)". مجلة المؤرخ العربي. العدد (٢). المجلد (١). مارس (١٩٩٤ م)، ص ٧٣ وما بعدها. وهذا البحث تم نشره في كتاب للمؤلف. دراسات في تاريخ تهامة والسراة، الجزء الأول، ص ١٦٥ وما بعدها، وهناك بحوث أخرى عديدة ومتفرقة عن تهامة ومنشورة في موسوعة (القول المكتوب في تاريخ الجنوب) (٢٣ مجلد).

(٢) الثنينان، "رحلة السلطان المجاهد... ص ١٢٨ وما بعدها.

(٣) للمزيد انظر: خير الدين الزركلي. الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤ م)، ط ٢، ج ٢، ص ٢٦٣.

(٤) انظر: ناصر علي الحارثي. موسوعة الآثار الإسلامية في محافظة الطائف من خلال كتابات المؤرخين والرحالة (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م) ص ٢١.

(٥) الخليف: بلدة قديمة أثرية في محافظة قنوة بمنطقة الباحة، تقع إلى الناحية الشمالية الغربية بحوالي خمسة كيلومترات من مدينة قنوة، المركز الإداري للمحافظة المنسوبة إليها (محافظة قنوة). للمزيد انظر: أحمد عمر الزليعي. الخلف والخليف: آثارهما ونقوشهما الإسلامية (الرياض: مطابع الخالد للأوقاف، ١٤١٧ هـ) ص ١١، وما بعدها.

سار إلى منطقة القنفذة فذكر بلدي دوقه، و القنفذة، فقال: " ثم خرجنا من دوقه في ساعة مسعدة، ودخلنا القنفذة^(١)، فرأيتها قرية الفقر بها قاطن " ثم استرسل ما شاء في إسباغ أسوأ الأوصاف عليها، وأورد من شعره فيها، قوله:

لما أتيت القنفذة	تبأ لها من قنفذة
رأيت ههنا بليدة	من كل خير مبعدة
ثلاث أيام مضت	بحالة منكدة
مكثت فيها طائفاً	والجوع نار موصدة
ولم أجد فيها فتى	ذا همة مسعدة
إلا الوزير الشهم من	صاد العلى وأبيده
(رضوان) ^(٢) مأوى الضيف ما	أعزّه وأرشدّه
فهو والذي أحلني	جنته المخلده
من بعد نار مالك	أعني بلاد القنفذة
أبقاه رب العرش في	رياسة مؤبدة
وحلفه بلطفه	طول المدى وأسرعه ^(٣)

وإذا وقفنا أمام هذا الشعر الذي قاله الموسوي في بلدة القنفذة وأهلها، نجد فيه مبالغة وتجاوزاً في بعض الكلمات والعبارات التي أوردها، ومن يقرأ ويتعرف على ديدن الموسوي وهواه يجده رحالة يتنقل في الأقطار بحثاً عن العطايا والهبات، ومن لا يحسن استقباله يصمه بأقذع الأوصاف، ولا نستبعد أنه لم يجد عند أهل القنفذة ما كان يتطلع إليه. نعم إن الناس جميعاً آنذاك كانوا في فقر وجوع وضيق ذات اليد، لكن سكان القنفذة مسلمون عارفون بالقيم والأعراف وحقوق الضيافة، وهذا فعلاً ما وجده عند مضيفه الوزير رضوان الذي أشار إليه^(٤).

(١) أورد الموسوي اسم القنفذة بالبدال المهملة غير مضبوطة، ولكن السجعة والقافية تدل عنده بالبدال المهملة، انظر: حمد الجاسر "مع الموسوي المكي في رحلته (٨): نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس" مجلة الفيصل. العدد (٢٣٠) السنة (٢٠) (شعبان ١٤١٦هـ)، ص ٣٥-٣٧.

(٢) لم نجد ترجمة لهذا الرجل (رضوان)، الذي سماه الموسوي الوزير، ولا نعلم لماذا اختار هذا المصطلح، فهل كان أميراً لبلدة القنفذة؟ ولا نعتقد ذلك، لأنه لو كان كذلك لسماه بلقب الأمير بدلاً من الوزير. وربما كان من أعيان الناس وأغنياء القنفذة. ويبدو من اسمه أنه من أصول تركية، لأن اسم (رضوان) بكثرت بين الأتراك العثمانيين.

(٣) للمزيد انظر: الجاسر "مع الموسوي..."، ص ٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥-٣٧.

٥- يحيى بن المطهر (ق ١٢ - ١٣ هـ / ١٨ - ١٩ م) :

يحيى بن المطهر بن إسماعيل بن يحيى بن الحسين، ولد في صنعاء عام (١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م)، تربى في كنف والده وأخذ العلم على أيدي الكثير من مشائخ اليمن، ومن أبرزهم العلامة محمد بن علي الشوكاني^(١). اشتغل بالدرس والتدريس حتى تبحر في العلوم، له العديد من المؤلفات القيمة، وتوفي عام (١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م)^(٢).

رحلة هذا الرحالة مدونة في كتابه: **بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام**، ويعد من نواذر المخطوطات وأنفسها في مجال الرحلات^(٣) التي خلفها علماء اليمن، وهو رحلة بدأها ابن المطهر من صنعاء في شهر شوال (١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م)، وسار على الطريق البري حتى وصل الحديدة، ثم ركب البحر إلى جزيرة كمران ثم إلى القنفذة والليث^(٤)، وأخيراً جدة^(٥). تحدث هذا الرحالة عن الموانئ التي مر عليها من الحديدة إلى جدة، وعند وصوله إلى بلدي القنفذة والليث، لا يذكر تفاصيل كثيرة عنهما، اللهم إلا إشارته إلى نزولهم من مركبهم في البلدين كي يتزودوا ببعض المؤن كالطعام والشراب، وشاهد العديد من الجمالة الذين كانوا ينتظرون المسافرين بالبحر كي ينقلوهم براً إلى مكة. ويذكر أن سمعة الجمالة كانت سيئة لما يقومون به من ابتزاز للمسافرين، وأحياناً يعتدي للصوص وقطاع الطرق على الجمالة والمسافرين الذين يسافرون على الطريق الساحلي البري إلى مكة، ولهذا فضل الذهاب بالبحر من القنفذة إلى جدة بعد أن كاد يترك البحر ويذهب مع الجمالين براً^(٦). ولم يفدنا هذا الرحالة كثيراً عن أوضاع التاريخ الحضاري لبلاد القنفذة، مع أنها كانت من الحواضر الهامة آنذاك وبخاصة للقوى السياسية في كل من الحجاز وعسير ونجد والعثمانيين وغيرهم^(٧).

(١) محمد الشوكاني (١٢٥٠-١١٧٣ هـ / ١٨٣٤-١٧٦٠ م) من كبار علماء اليمن عاش في صنعاء وتولى القضاء فيها، ومات حاكماً بها، وله العديد من المؤلفات القيمة مثل: **نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار**، **البدور الطالع**، و**فتح القدير** وغيرها. للمزيد انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٦، ص ٢٩٨.

(٢) للمزيد انظر: عبد الله محمد الحبشي. **الرحالة اليمنيون: ورحلاتهم شرقاً وغرباً** (صنعاء: مكتبة الإرشاد، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م)، ص ٨٤٨٣.

(٣) لا يزال هذا الكتاب مخطوطاً حتى الآن.

(٤) الليث / بلدة تقع على ساحل البحر الأحمر، إلى الجنوب الغربي من مكة بحوالي (١٨٠) كيلاً. للمزيد انظر: ابن بليهد، **صحيح**، ج ٢، ص ٩٧، **البلادي**. **بين مكة واليمن**، ص ٤٤٣٠.

(٥) الحبشي، **الرحالة**، ص ٨٦-١٠٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠١-٩٥.

(٧) للمزيد عن تاريخ القنفذة السياسي والإداري خلال العصر الحديث انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب.

٦ . محسن بن عبد الكريم إسحاق (ق ١٢ - ١٣ هـ / ١٨ - ١٩ م) :

هو الأديب محسن بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن إسحاق بن المهدي أحمد ابن الحسن بن القاسم، ولد في صنعاء عام (١١٥١ هـ / ١٧٣٨ م)، وأخذ العلم عن ليف من العلماء في اليمن . ذكره الإمام الشوكاني وأثنى عليه، فقال: " روي له شعر، فلم تمر إلا أيام قلائل حتى ظهر له النظم الجيد، وما زال ينمو نمو الهلال حتى بلغ أعلى المراتب " ^(١)، وتوفي عام (١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩ م) ^(٢).

خرج ابن عبد الكريم من صنعاء في رحلة بغرض الحج يوم الخميس (٢١) شوال (١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م)، فذهب مع رفاقه براً إلى الحديدة، ثم ركبوا البحر حتى نزلوا في ميناء القنفذة، وساروا براً حتى دخلوا مكة المكرمة ^(٣).

معظم تفصيلات رحلة هذا الرحالة قالها في أرجوزة شعرية جيدة شرح فيها الكثير مما شاهد براً وبحراً من صنعاء إلى مكة والمدينة. وذكر ما عانوه في البحر من متاعب وأهوال، وكيف غمرتهم الفرحة عندما نزلوا على اليابسة في القنفذة ^(٤)، وسرد بعض التفصيلات عن أحوالهم وما رأوا في القنفذة حتى بلدة الليث، وقد أدرج ذلك شعراً، فقال :

فأجمع الرأي بلا مجادل على السلوك من طريق الساحل
به قصدنا للخروج (القنفذة) وقد (زبلنا) ^(٥) تعباً و (قلعدة) ^(٦)

ودع الركاب البحر غير آسفين وأخذوا يعدون العدة لقطع الفيافي والرمال، وكان لابد لهم من سفن أخرى تقلهم هي سفن الصحراء (الجمال)، وكانت الجمال في تلك اللحظات من العملة الصعبة حيث يبلغ كراؤها (إيجارها) مبلغه من ارتفاع فاحش فلا حيلة ولا مناص للجميع إلا الاستسلام لأصحابها فيما طلبوه، فقال :

(١) الحبشي، الرحالة، ص ١٣٢ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٣ .

(٣) المصدر نفسه . ص ١٣٣ - ١٥٠ .

(٤) المصدر نفسه . للمزيد انظر: اسماعيل جفمان رحلة الحج من صنعاء إلى مكة المكرمة . كتاب الدارة

(الكتاب التاسع)، تحقيق محمد الثنيان، ص ١٦ .

(٥) زبل : ضاق

(٦) قلعدة : انتكاس الحال

فأطبقوا على الخروج عنها يوم الخميس لا عدول عنها
في يوم عشرين لشهر القعدة مستصحبين للطريق العدة
ثم اكتروا سبعاً من الجمال تحملهم في الخبت والرمال
بأربعين فوق مئتين كالكر من القروش المين^(١)

وقبل الرحيل من ميناء القنفذة يلقاهم هناك عاملها والكاتب بها ويجتمعون هناك
بأحد الصوفية من السودان من أسرة آل المرغني .

وجاءنا وزيرها والكاتب وجملة ممن بها يناسب
ثم أتى فيها حفيد المرغني عثمان وهو بالتلاقي يعتني
في بلد السودان كان غائباً يسبح فيها جانباً فجانباً^(٢)

ثم يزعم هو ومن معه على الرحيل مواصلاً سيره إلى الأماكن المقدسة وذلك بعد
عصر الجمعة والجو ممطر ينذر بتوقف السير لولا حصول لطف من الله عز وجل:

ولم نزل نقطع تلك الأرض نطلب من أعاننا أن يرضى
وكانت الأمطار متتابعة لولا حصول اللطف كانت قاطعة
كان الشداد بعد عصر الجمعة والسير دفعة عقيب دفعة^(٣)

وتتابع المراحل فيصبحون في الحسبة (الأحسبة) بعد سير الليل بطوله ثم النهار
ويأتي عليهم الظهر وهم في "دوقة" ، وهنا يستحسن الجماعة المبيت بها فما يكادون
يستقرون بها حتى تهطل السماء عليهم بأطارها الغزيرة :

حتى أتينا بعد فجر (الحسبة) وهي محل بالزروع خصبة
وأول الظهر رحلنا العسا واستحسنوا في (دوقة) العرسا
وبعد حط الرحل والأثقال أرخت علينا سحبها العزالي^(٤)

بييتون ليلها وردحاً من يوم الظهر في (دوقة) ، وعند الظهيرة وقد بردت الشمس
يواصلون العزم في سير دقيق حتى (يرخي عليهم الليل سدوله) ، وقد أنذرت السماء

(١) انظر: الحيشي ، الرحالة ، ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ .

(٤) المصدر نفسه .

بأمطارها، فهنا سكنوا تحت ظلال أشجار (المرخ) الوارفة :

ثم رحلنا بعد ظهر الأحد نطوي بحمد الله كل فد فد
وبعدما أرخى الدجا سدوله أرخى السحاب فوقنا سيوله
فنزلوا تحت غصون المرخ وعقد غيث السحب فيه مرخي
والكل في ظلاله قد قالا وزاده بثوبه ظللاً^(١)

لكن الحال لم يستمر لهم طويلاً تحت ظلال المرخ وقد خشي الركب من تزايد
الأمطار وحدوث السيول فعزموا بهمة كبيرة لقطع الطريق حتى يصلوا إلى أقرب بلدة،
فيصلوا إلى بلدة (الشاقة) .

وها هنا قاموا لقطب الشدة يحاذرون مطراً وشدة
فلم نزل حتى وردنا (الشاقة) وما رأينا قط حالاً شاقة^(٢)

وفي هذه البلدة تناخ الجمال وقد وصلوها بعد صلاة العصر فاستكن القوم وذهبوا
إلى مضاجعهم مبكرين حتى لا تفوتهم صلاة الصبح غداً فلا يأتي وقت الضحى إلا
وهم في سيرهم المتتابع :

ثم حططنا الرُّحْل بعد العصر وثمة قمنا لصلاة الفجر
والسير قد كان إلى وقت الضحى والكل منا بالمقام فرحاً

إن بعض حالات الرحلة يكون فيها متعة ونزهة خاصة عندما يكون الجورطباً ملبداً
بالغيوم، وهنا يعجب الركب بموضع قد ملئ بأشجار المرخ الوارفة وبجانبه بئر تفيض
بالماء العذب فيستقر الرأي على المكوث بهذا الموضع وإعداد الطعام فيه بعد أن ذبحوا
تيساً لطعامهم كما يقول شاعرنا:

وجعلوا المرخ لهم ظللاً وذبحوا تيساً لهم أكالا
وأوجد الله به حسناً كانت لهم نظافة ورياً
ثم تغدينا ونمنا ساعة والظهر صلينا به جماعة^(٣)

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

ويخرج هذا الرحالة من بلاد القنفذة إلى منطقة الليث ثم مكة المكرمة، ومن ثم فقد زدنا بتفصيلات لأبأس بها عن بعض الجوانب الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد القنفذة، وكنا نتطلع إلى المزيد وبخاصة في الأحوال السياسية والإدارية والحضارية الأخرى^(١).

٧. إسماعيل جفمان (ق ١٣ هـ / ١٩ م) :

هو العلامة إسماعيل بن حسين بن هادي بن صلاح بن يحيى جفمان، ولد في صنعاء عام (١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م) وتلقى العلم على عدد من علماء الزيدية في اليمن، تولى القضاء للإمام الناصر بن عبد الله بن الحسن بن المتوكل (١٢٥٢ - ١٢٥٦ هـ / ١٨٣٦ - ١٨٤٠ م)^(٢).

ويعد إسماعيل جفمان من جهاذة علماء عصره، له العديد من المؤلفات في التاريخ، والعلوم الشرعية، وعلم الكلام، وأدب الرحلات^(٣). وكتابه: نيل الوطري في ذكر أحوال السفر إلى الحرم الأزهر والنبي الأنور (ﷺ)، هو الذي وردت فيه تفاصيل رحلة هذا الرحالة من اليمن إلى مكة، بدأها في عام (١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م) وانتهى منها في العام الذي يليه^(٤). والمتأمل في خط رحلة جفمان أثناء الذهاب يلاحظ أنه بدأها السفر براً من صنعاء إلى الحديدة، ثم ركب البحر من ميناء الحديدة إلى ميناء القنفذة وأخيراً سافر براً من القنفذة إلى مكة المكرمة^(٥).

منذ وصوله إلى بلاد القنفذة ثم خروجه منها نحو ديار الليث، نجده يفصل الحديث عما قبله وشاهده في منطقة القنفذة، فيقول: "وصلنا في البحر إزاء بندر القنفذة وكان قد ضاق بنا الحال، ولم تكن تصبر النفس على البقاء في البحر بحال، يسر الله تعالى أن ساعد أكثر الركاب على الخروج من ذلك المحل، وأجمع الرأي على خروج القاضي عز الدين محمد بن أحمد البهكلي^(٦)، صنو مجتهد نجد وتهامة، ومن

(١) للمزيد عن تاريخ القنفذة السياسي والإداري انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب، بلاد القنفذة وما جاورها من بلاد تهامة مازالت تستحق دراسات علمية عميقة وموثقة.

(٢) للمزيد انظر: محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة. نيل الوطري من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر الهجري (القاهرة: د. ن، ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ) ج ٢، ص ١٧٤. ٢٧٩، جفمان، الرحلة، ص ١٧.

(٣) المصدران نفسهما، للمزيد انظر: الحبشي، الرحالة اليمنيون، ص ١٥١ وما بعدها.

(٤) انظر: جفمان، الرحلة، ص ١٩. وأثناء عودة الرحالة جفمان إلى اليمن خرج من جدة إلى ميناء اللحية بحراً، ثم واصل رحلته براً إلى صنعاء. المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٥) المصدر نفسه، انظر: أيضاً الحبشي، الرحلة، ص ١٥٥ وما بعدها.

هو في غرة العلماء شامة عبد الرحمن بن أحمد^(١). وكان عز الدين صاحب فطنة عظيمة وخبرة بالأمر ومعاودة، وكان خروجه من البندر لينظر بعين البصيرة رخص الكراء وأمن الطريق وتيسير الأمور أو عدمها؛ فما أفرح علينا من خروجه صباح الجمعة بالخبر السار من رخص الكراء وأمن الطريق وتيسير الجمال وغير ذلك. فخرجنا من القنفذة تلك الساعة^(٢) بجميع أدباشنا^(٣)، ولم يبق في الساعة^(٤) إلا القليل حتى بلغ جملة الخارجين نحواً من مئة نفر، وخرجت أنا والرفقة المقدم ذكرهم، وقيلنا في القنفذة بقية يومنا ولم أر كيوم الجمعة في البحر شدة كما مضى ولا كيومه في القنفذة سروراً وفرحاً بالخلاص واستئناساً بأكثر المؤلف. وبندر القنفذة بندر عجيب له سور مقضض^(٥). أكثره أبواب وبيوت عامرة وخانات^(٦)، وسوق وسيع يوجد فيه الحبوب والبقسماط^(٧) وهو طعام يصنع في البلاد الشامية ويحمل إلى كل محل منها، كما يحمل الكعك في بلادنا إلا أنه لا يمكن استعماله إلا بعد ترطيبه بالماء أو المرق.

وأكثر أهل البندر (من) الحضارم، ورتبته وواليه من الأتراك لأنها (محكمة إلى السلطنة)، واسم واليه جمعة، ولعله من عبيد الأتراك، وهو رجل عجيب لاسيما في تأنيس الغريب. وأما سمن البندر المذكور وعسله فأكثر سمنه البحري^(٨) وهو ضعيف، وعسله أكثره المستخرج من الرطب، وبه مسجد عظيم ومنبر وخطيب وإمامه مفتي البلد، وحاكمه السيد أحمد السقاف من الحضارم^(٩). ولعله قد سكن صنعاء وأخذ من طباع أهلها ولطافتهم.

(١) عبد الرحمن البهكلي الشقيق الأكبر لمحمد البهكلي، ولد عام (١١٨٢هـ/١٧٦٨م)، وتلقى العلوم على يدي كوكبة من علماء عصره، تولى الإمارة والقضاء في مدينة بيت الفقيه عام (١٢١١هـ/١٧٩٦م)، وكانت وفاته عام (١٢٤٨هـ/١٨٣٢م). للمزيد انظر: زيارة، نيل الوطر، ج٢، ص ٢٣-٢٥.

(٢) الساعة: أي في الحال واللحظة نفسها، ويدل كلامه على سرعة خروجهم من البحر إلى البر. للمزيد انظر جفمان، الرحلة، ص ٦٥.

(٣) أدباشنا: أي أمتعتنا وأغراضنا الشخصية، وهذه لفظة عامية في اليمن، وفي جازان ومفردها (دَبَش).

(٤) الساعة: السفينة التي كانوا فيها.

(٥) القضاض: خلطة تتكون من الحصى والنورة والماء، وأحياناً يضاف إليها شحوم الحيوانات، تعمل لطلاء المنشآت المائية بوجه خاص. جفمان، الرحلة، ص ٦٥.

(٦) الخانات: ومفردها (خان) وهي كلمة فارسية معربة تعني حانوت التاجر، أو نزل المسافرين.

(٧) البقسماط: البسكويت المجفف، الخبز الجاف الخشن، واللفظة مأخوذة من كلمة بكسماط التركية. جفمان، الرحلة، ص ٦٥، الحبشي، الرحالة، ص ١٦١.

(٨) أي السمن المستورد عن طريق البحر، وهو على عكس السمن البري الذي يأتي إلى سوق القنفذة من الظهير البري للمدينة، والمصطلح معروف في القنفذة، وأحياناً يسمى (السمن البندري) نسبة إلى بندر القنفذة.

(٩) بنو السقاف من البيوت المشهورة والكبيرة في حضرموت، وينتسب إليهم عدد كبير من الأدباء والعلماء. للمزيد انظر: إبراهيم أحمد المحضي. معجم البلدان والقبائل اليمنية (صنعاء : دن، ١٩٨٨م) ص ٣١٧-٣١٨.

وارتحلنا منه ليلة السبت على جمال لأهل الحسبة^(١) ولم أكد أنظر ألطف منهم في الطباع وحسن المعاملة والمحافظة على الصلوات . كان خروجنا من القنفذة ليلة السبت لعله (١٢) (من) شهر (ذي القعدة) ، وكان قد أمرنا على الحجاج السيد أحمد بن قاسم حيدرة لنسبة الشريف وعضده في المشاورة كاتب الأحرف ، وفي متاخمة الجمالين والمكارة وغيرها القاضي عز الدين ، ثم شددنا الرحال وخرجنا فلم ندرك باب البندر مفتوحاً وضاق بنا الحال ، وبعد أن سلم القاضي عز الدين المتقدم ذكره^(٢) للأتراك الذين على الباب نصف ريال وفتحوا لنا باب البندر . ومن هاهنا يسمى القرش الحجر ريالاً^(٣) . والقرش عبارة عندهم عن الزلطة^(٤) وهي درهم منقوش عليه اسم الضارب ومكانه ، وبالقرش الحجر منها في القنفذة ستة عشر ، وفي جدة خمسة عشر ، وفي مكة أربعة عشر ، وفي المدينة ثلاثة عشر ، ويزاد وينقص في بعض الأحيان ؛ وثمة ضربة ذهب تسمى برغوثة عبارة عن ثلاثة قروش إلا ربع زلط ، وضربة أم عشرين وهي عبارة عن نصف الزلطة ، وأم عشرة عن ربعها ، وأم خمسة عن ثمنها ، والديواني فضة خالصة وهو شيء يسير عبارة عن ربع عشر الزلطة ، والأرباع الفرائص^(٥) كثيرة يتعامل بها ، والزلط أنفق منها ، وثمة ضربة زلط كبار جيدة الفضة تباع الواحدة منها بثلاث زلط من النحاس ، وتجد الصيارفة كثيراً في الأسواق تأخذ ما أردت منهم . وهذا عارض من القول ، ثم كان السفر والرحيل بقية ليلتنا إلى آخر صبح يوم السبت فوصلنا الحسبة^(٦)

(١) الحسبة : يقصد بها وادي الأحسبة وهو من فحول الأودية وينبع من سروات غامد ويصب في البحر الأحمر إلى الشمال من بلدة القنفذة ، والأحسبة من ضمن المحطات الرئيسية على الطريق الساحلي بين اليمن والحجاز ، انظر : البلادي ، بين مكة واليمن ، ص ٩٩ وما بعدها .

(٢) أي عز الدين محمد البهكلي الضمدي التهامي .

(٣) يتحدث صاحب الرحلة عن الوضع النقدي القائم آنذاك في منطقة الحجاز وحواضرها ، وركز على مقدار صرف القرش الحجر (المسمى أيضاً قرش حجر ، أو ريال حجر ، أو ريالاً) ، وهو العملة النقدية الفضية النمساوية المعروفة بكبر الحجم وتسمى (ريال) أو (دولار) ماريا تريزا أو الفرنسي ، وقد استمر التعامل بها في بعض نواح من جنوب ووسط الجزيرة العربية حتى عام (١٢٨٤هـ / ١٩٦٤م) . للمزيد انظر : أحمد محمد الجرافي . حوليات العلامة الجرافي (١٣٠٧ - ١٣١٦هـ / ١٨٨٩ - ١٩٠٠م) ، ص ١٠٧ ، وهامش رقم (٢٨) .

(٤) الزلط / لفظة يمنية دارجة حتى الآن ويقصد بها المال أو الفلوس والثروة . كما تعني لفظة الزلط أو الزلطة : العملة المساوية الواحد بالمئة من الريال . أما الريال فلفظة إسبانية ، وهو عملة فضية فرنسية تم التداول بها في بلاد اليمن منذ بداية القرن العشرين (١٩١٨م) عندما استبدلت بـ (دولار) ماريا تريزا الذي عرف في اليمن بالريال الفرنسي ، أو ريال فرنساوي . جفمان ، الرحلة ، ص ٦٧ ، وأصلها من التركية زلوطة ، وهذه أخذتها من اللغة الصربية زلوتا أي : الفضة .

(٥) الفرائص : نسبة إلى الفرنسي (الفرنسي) .

(٦) الحسبة : أي بلاد أو وادي الأحسبة .

بعد مشقة السفر، وهان عندنا ذلك بالنظر إلى ما كنا عليه في البحر فوصلناها ذلك الوقت . وكان قيد شق بنا بطء الغداء ^(١) لأنها كانت أول المراحل في البر، لم يتفطن الأصحاب شيئاً من موجودنا مثل الكعك ^(٢) والتمر وإنما هو في الجوالق ^(٣) وكأنه عند الاحتياج إليه في السفر أبعد بعيد، وبعد ذلك توسلناه وكنت أجعله في كيس وأخذه معي حتى إذا ركبت جعلته على ظهر الجمل فإذا احتجت إليه أخذت منه، وينبغي لكل أحد استصحاب شيء من ذلك وأن لا يخرج من المحط الأول إلا وقد تناول من الطعام ما حضر عنده، ولا يغتر بقرب المرحلة فلاختلاف الديار تأثير زيادة في الإضرار ومعاشرة الجمالين وإتحافهم، فإني كنت لا آخذ من الكيس المذكور لنفسني شيئاً إلا وقد أعطيت الجمال منه قبل ذلك . وقيلنا بيثر بقرب الحسبة ^(٤) تحت أشجار مدوحة هنالك إلى بعيد عصر يومنا وارتحلنا نحو دوقة ^(٥).

ووصلنا دوقة ثلثي ليلة الأحد فعرسنا ^(٦) بالقرب من سوقها المشهور تحت دوحات كبار، وبتنا بقية ليلتنا وأصبحنا بذلك المكان . وكان اليوم يوم السوق المذكور رأينا الغنم وأحمال الدخن والتمر وغيرها، وبقينا فيه إلى ناصفة النهار ثم ارتحلنا منه بين صلاتي العصرين إلى الشاقة الأولى ^(٧) وهي كاسمها وأختها كذلك ^(٨).

أي بعد مرحلة دوقة الشاقتين، والأمر للمسافر بالمبادرة لبعده شقتهما . فكان خروجنا من دوقة بين صلاتي العصرين وقطعنا تلك الأودية التي أكثر ثمرتها الدخن،

(١) الغداء : قصد صاحب الرحلة وجبة الإفطار، ويمكن أن تطلق اللفظة نفسها أيضاً على وجبة منتصف النهار.
(٢) الكعك : فطيرة تعمل من الطحين والبيض والسمن، وأحياناً تطلق ببذور حب الكمون . انظر جفمان، الرحلة، ص ٦٩، الحبشي، الرحالة، ص ١٦٢ .
(٣) الجوالق : كلمة فارسية معربة، وهي من أوعية حفظ الحاجات .
(٤) الحسبة : أي الأحسبة .

(٥) دوقة، أو وادي دوقة : من فحول أودية تهامة زهران ويقع إلى جنوب مكة بحوالي (٢٨٠) كم، وعند مصبه في البحر توجد قرية تسمى (دوقة القديمة)، للمزيد انظر:، ابن بليهد، صحيح الأخبار، ج ٢، ص ٩٢، البلادي، ص ٦٧ وما بعدها، علي بن صالح السلوك الزهراني . المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران (جدة: دار البلاد، ١٤١٧هـ) ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٦) التعريس : استراحة المسافر في أول الليل ، انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة (ر . س) .
(٧) بلاد الشاقة الأولى : تعرف جغرافياً باسم وادي عُليب خاصة في قسمه العلوي الجبلي، أما عند نزوله في تهامة الساحل فيطلق على الوادي نفسه الشاقة الجنوبية، يقع مجرى الوادي بين وادي حلية شمالاً، ووادي دوقة جنوباً . البلادي، بين مكة واليمن، ص ٦١-٦٤، أحمد الزيلعي . نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عليب (الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ص ١٧ .

(٨) أي الشاقة الثانية، أو الشامية (الشمالية : الوادي المعروف جغرافياً باسم وادي حلية خاصة قسمه العلوي في جبال السراة، أما قسمه الساحلي (التهامي) فيطلق عليه اسم الشاقة الشامية ويشتهر بغاباته ويقع إلى الجنوب من الليث بمسافة تصل إلى (٦٠) كم انظر: البلادي، ص ٥٤-٥٨، الزيلعي، نقوش إسلامية في حمدانة، ص ١٧ .

بؤها مألحة، وشعابها عظيمة وهي تتصل بجبال الحجاز، ولم نصل إلى وادي الأراك^(١) إلا بعد صلاة فجر يوم الإثنين، وقد كلت الجمال عن السير فوصلناها صباحاً. وهو وادٍ عظيم، في أشجاره ثمر الأراك وهي كثيراً ما توجد في بنادر تهامة وغيرها، أشبه شيء صورتها بالحدق^(٢)، وفيها حراقة كحراقة مأوية العروق التي يستاك منها للصلاة. وعند وصول ذلك الوادي ينعم الإنسان صباحاً لقرب المقيّل وحطّ الرحل الثقيل. فإنه كان وصولنا المحط عقيب شروق شمس يوم الإثنين، وقيلنا تحت أشجار صفار، جعلنا الخيام على أعلاها بالقرب من بئر هنالك، وكانت قيلولتنا إلى قبل عصر اليوم، وارتحلنا نحو الليث^(٣).

٨. السير كيناهاان كورنواليس (Sir. K. Cornwallis)

٩. روبرن بدول (R. Bidwell) :

هذان الرحالان من جنسية إنجليزية، عاشا خلال القرنين (١٢-١٤ هـ / ١٩-٢٠ م)، ولهما بعض المساهمات الفكرية وبخاصة الثاني (R. Bidwell) فهو أكاديمي بجامعة كمبردج وله العديد من الدراسات والمؤلفات، وقد ترجم بعضها إلى اللغة العربية^(٤).

أما كورنواليس فهو معاصر للمستشرق بدول، كان يعمل بالمكتب العربي بالقاهرة الذي أنشئ بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى بهدف جمع المعلومات التي تقيد الدوائر العسكرية البريطانية وتسهل عليها مواصلة مخططاتها وسياساتها في البلاد العربية، كان هذا المكتب بمثابة الجهاز المركزي للمخابرات البريطانية في الشرق الأوسط^(٥).

جاء كورنواليس إلى بلاد عسير وتجول في أرجائها وكتب تقريره التفصيلي عن منطقة عسير في عام (١٢٣٥ هـ / ١٩١٦ م)^(٦). وهذا التقرير الذي نحن بصدد كتابته في الأصل

(١) لعله يقصد وادي الشاقة الشمالية لوفرة غاباته وبخاصة من شجر الأراك. (مشاهدات الباحث خلال عام ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م).

(٢) الحدق : نوع من أنواع النباتات، ويطلق على الباذنجان اسم الحدق. انظر: جفمان، الرحلة، ص ٧١.

(٣) للمزيد انظر: الحبشي، الرحالة، ص ١٦٠، جفمان، الرحلة، ص ٧٢-٦٤.

(٤) انظر: روبرن بدول. الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية. ترجمة عبد الله آدم نصيف (الرياض: د. ن، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ص ٧ وما بعدها.

(٥) للمزيد انظر: مديحة درويش. تاريخ الدولة السعودية خلال الربع الأول من القرن العشرين (الرياض: دار الشروق، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م)، ص ١١١ وما بعدها، غيثان بن جريس. بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة: دار العوضي للنشر، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م)، ص ١٢٤-١٢٥.

(٦) يعد كورنواليس أول أوروبي يزور عسير بعد الطبيب الفرنسي تامينيه الذي جاء مع الجيوش المصرية التي

وطبع في القاهرة عام (١٩١٦م)، ثم أعيد طبعه على يد مؤسسة أولياندر. فالكون ببريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عام (١٩٧٦م). بهدف تقديمه إلى جمهور أوسع، وأصبح عنوانه الرئيسي: عسير قبل الحرب العالمية الأولى ^(١). Asir before World War 1، وهذا الكتاب مازال موجودا بلغته الرئيسية (الإنجليزية)، مع العلم أنه قد ترجم ترجمة شعبية غير رسمية أو منشورة منذ ثلاثين سنة، وأصبحت هذه الترجمة متداولة عند بعض المتعلمين والدارسين في المملكة العربية السعودية وبخاصة في منطقة عسير، ونتطلع إلى أن يقوم أحد طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا السعودية، أو أحد الباحثين الجادين على ترجمته ودارسته دراسة علمية جادة، مع العلم أنه يوجد به تفصيلات قيمة، لكن يوجد به أيضا الكثير من المغالطات والأخطاء العلمية الفادحة ^(٢).

أما كتاب روبن بدول الذي يصب في صميم دراستنا هذه فهو بعنوان: الشخصيات العربية في مطلع القرن العشرين . Arabian Personalities of The Early Twentieth Century ولا يزال حسب علمي بلغته الرئيسية (الإنجليزية) ما عدا الفصلين الثاني والعاشر، فلقد قام أحد الباحثين المحدثين بترجمتهما ترجمة أولية إلى العربية، لكنه لم ينشرهما حتى الآن ^(٣)، وهذان الفصلان يحتويان على تفصيلات قيمة عن عسير والمخلاف السليمانى ^(٤).

جاءت إلى منطقة عسير في النصف الأول من القرن (١٣هـ/١٩م). للمزيد عن رحلة تامييه انظر: موريس تامييه. رحلة في بلاد العرب الحملة المصرية على عسير (١٢٤٩هـ/١٨٢٤م). ترجمة محمد آل زلفة (الرياض: مطابع الشریف، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م)، ص ١١ وما بعدها.

(١) هذا الكتيب يقع في (١٥٥) صفحة باللغة الإنجليزية، ومقاس ورقه من القطع الصغير. للمزيد من التفصيلات عن هذا الكتاب، انظر: أحمد عبد الرحيم مصطفى "كتاب عسير قبل الحرب العالمية الأولى، للسير كيناهان كورنواليس" مجلة دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية. العدد (٢٤) السنة (٦) (أكتوبر ١٩٨٠م/ذو القعدة ١٤٠٠هـ) ص ١٦٩-١٧٨.

(٢) للأسف قام أحد المدعين للعلم والبحث العلمي بالاعتداء على تلك الترجمة الشعبية الآتية الذكر، ونشر الكتاب تحت اسمه دون أن يجري عليه أي تعديلات أو تصحيحات علمية نافعة، ومثل هذا العمل لا يجوز شرعا ولا عرفا، وكما ذكرت في المتن أعلاه حبذا أن نرى من يتصدى لهذا الكتاب في نصه الأصلي فيقوم على ترجمته وتحقيق ما ورد به من أخطاء علمية.

(٣) إسماعيل بن محمد البشري أستاذ التاريخ الحديث. بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ثم جامعة الملك خالد، ثم جامعة الشارقة، فعوضو بمجلس الشورى السعودي، ثم جامعة الجوف. قام بترجمة هذين الفصلين، وأتمنى أن نراهما منشورين في متناول أيدي الباحثين والدارسين والمتخصصين.

(٤) يوجد صورة من هذين الفصلين المترجمين ترجمة أولية، ضمن مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (قسم البحوث والدراسات غير المنشورة).

(*) وعند الاطلاع على مادة كتابي : كورنواليس وبدول وبخاصة ما يتعلق بمنطقة القنفذة يتضح لنا عدة أمور، أهمها :

١. التشابه الشديد في مادة الكتابين، ومن ثم يتضح لنا أن المصدر الرئيسي لهذه المادة هو كورنواليس، وجاء بعده بدول فجمع مادة كتابه من الوثائق والتقارير البريطانية، وكان تقرير كورنواليس الأساس فيما دون عن منطقة القنفذة^(١).
٢. الكتابان اشتملا على تفصيلات كثيرة عن الشخوص والأعلام في بلاد القنفذة، فأوردوا أسماء كثيرة من الشيوخ والتجار والأعيان في الديار القنفذية، مثل : أحمد بن خيرة شيخ النواشر من قبيلة بلعير، والشريف حسن أبو منديل، شيخ آل ذوي بركات ما بين الليث والقنفذة، وحسن بن خضر شيخ بني زيد، وسيد الجفري تاجر الجلود والأصماغ والسمن والحيوانات، وسيد درويش مفتي القنفذة من أسرة آل الأهدل، والشيخ علي بن عبده، شيخ بني هلال بالبرك، وعلي بن مديني الشيخ الأعلى لقبيلة بلعير . وغيرهم من رموز القنفذة في أوائل القرن العشرين الميلادي^(٢).
٣. تحدث هذان المستشرقان عن بعض عشائر القنفذة، مثل قبائل بلعير، وأهالي حلي، وقبائل بني هلال، فذكروا مواطنهم في البلاد الممتدة من بلدة القنفذة شمالا إلى بلدة البرك وما حولها . وأشارا إلى بعض صفات هذه القبائل كشدة بأسهم في القتال، كما أنهم كانوا يمارسون مهن الرعي والزراعة ويوجد ببلادهم خيرات كثيرة تسد حاجتهم^(٣).
٤. ذكروا أن سكان هذه البلاد كانوا في صفوف الأتراك أثناء قدومهم إلى بلاد عسير، لكن بعد ظهور الإدريسي في جازان^(٤) . فضلوا الانضمام إلى جانبه، والانتقياد في دفع الضرائب إليه^(٥) . كما عمل هذان الإنجليزيان على ذكر

(١) انظر: كورنواليس (النص الإنجليزي) PP.18 FF، بدول، النسخة العربية غير الرسمية، ص ٢، وما بعدها .

(٢) للمزيد من التفصيلات عن هؤلاء الأعلام وغيرهم في الكتابين الأنفي الذكر، انظر : Cornwallis PP. 84 - 103 - روبن بدول، النص العربي المترجم، ص ١٩٠ .

(٣) انظر: Cornwallis. PP. 44 FF، روبن بدول، النص العربي المترجم، ص ١٠٩-١٠١ .

(٤) انظر : Carnwallis, PP 23 FF

(٥) المصدر نفسه، PP. 44 FF روبن بدول، النص العربي المترجم، ونسخة منه في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية . ص ١٠١ وما بعدها .

إحصائيات لبعض القبائل والعشائر القنفذية لكن ما قدما من معلومات حيال هذا الجانب لم يكن دقيقاً، وما زال يحتاج إلى جهد علمي كبير لدراسة ما دوناً، ويبدو أن مصادرهما لم تكن دقيقة وصحيحة فيما ذكرنا من أرقام سكانية لكل عشيرة أو ناحية.

٥. إذا أجرينا مقارنة على ما قدم هذان الغربيان عن تاريخ القنفذة نجد معلومات كورنواليس أشمل وأدق من معلومات بدول، وربما كان وقوف هذا الرحالة على أحوال وحياة العسيريين، وتنقله في أرجاء بلادهم جعله يدون لنا معلومات أكثر عمقا وتفصيلاً^(١). كما أنه انفرد بذكر بعض التفاصيل الحضارية، مثل: الإشارة إلى أهمية ميناء القنفذة لاستيراد وتصدير البضائع المختلفة، وبخاصة في عهد سيطرة الأتراك على هذا الميناء^(٢). كما أشار إلى العملات والأوزان والمقاييس والمكايل التي كانت معروفة ومستخدمة عند عموم سكان القنفذة^(٣)، وعدد الكثير من القرى والمحطات المنتشرة على ساحل البحر من الليث شمالاً إلى جازان جنوباً^(٤)، وأورد بعض الإضافات عن بلدة القنفذة، فقال: "إنها مدينة مسورة صغيرة، وهي على بعد (٢٠٠) ميل تقريباً جنوب جدة وهي ميناء لأبها^(٥)، ويتراوح سكانها بين (٢٠٠٠-٨٠٠٠) نسمة تقريباً، وفيها حامية تركية صغيرة، وبيوتها تقريباً مبنية من الحجارة، وفيها خمسة مساجد، وبيوت الحكومة موجودة في قلعة خارج المدينة، وتأتيها المواد من المناطق المجاورة، ومن قرى بني زيد الرئيسية"^(٦).

ويتحدث كورنواليس عن خمسة عشر طريقاً برية في بلاد عسير^(٧)، ويذكر منها ثلاث طرق رئيسية تصل إلى بلاد القنفذة هي: (١) طريق محاليل القنفذة عبر

(١) كورنواليس جاء إلى بلاد عسير وتنقل في أرجائها، والتقى بأهلها وسمع منهم، في حين جمع بدول مادته كتابة من الوثائق والتقارير البريطانية الخاصة ببلاد عسير، وكان تقرير كورنواليس من أهم مصادر بدول.

(٢) انظر: Cornwallis, PP. 19- 20.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. PP. 22- 24.

(٥) كانت القنفذة الميناء الرئيسي لبلاد عسير خلال عهد المتصرفية العثمانية في عسير (١٢٨٩-١٣٣٧ هـ/١٨٧٢-١٩١٨ م)، وحتى منتصف القرن الهجري الماضي (١٤ هـ/٢٠ م). يوجد في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية مئات الوثائق غير المنشورة التي تؤكد هذا القول.

(٦) للمزيد انظر، P. 34، Cornwallis.

(٧) المصدر نفسه، PP. 107 ff.

بارق، (٢) محایل البرك، (٣) محایل حلي^(١). وفصل الحديث عن المحطات والقري التي تمر عليها هذه الطرق، بل وصف طبيعة سكان تلك المحطات من حيث مستواهم الاجتماعي والاقتصادي. وذكر وجود المنازل المبنية بالحجارة في النواحي القريبة من بارق ومحایل، مع أن كثيرا من بيوت السكان في بلدان القنفذة وحلي والبرك تكاد تكون من العشب والقش^(٢).

١٠. الشريف البركاتي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م) :

الشريف شرف بن عبد المحسن بن حازم الحسني البركاتي الحسيني^(٣) (١٢٨٨ - ١٣٥٨ هـ / ١٨٧١ - ١٩٣٩ م)، من كبار الأشراف ومن المقربين إلى الشريف حسين بن علي^(٤)، ولاء قائم مقام إمارة مكة، ثم معتمدا للحكومة العربية الهاشمية بمصر، وبعد دخول الحجاز تحت حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل رجع الشريف البركاتي إلى مكة وتولى بعض الأعمال الإدارية في حكومة ابن سعود مثل : مأمورية عربان جدة وملحقاتها، ثم رئيسا للجنة التحقيق والتفتيش عام (١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م). كان كثير الاطلاع على كتب الأدب والتاريخ، وكان لطيف المعشر حلو الحديث حسن الخلق، مات عام (١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م)^(٥).

كتابه المعروف باسم : الرحلة اليمانية^(٦)، يتحدث فيه عن تفاصيل رحلة الشريف الحسين بن علي عام (١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م) التي خرج فيها مع العديد من الجيوش ذاهبا على طريق الساحل لمواجهة جيش الإدريسي الذي صار يسيطر على مناطق عديدة في

(١) للمزيد عن محطات هذه الطرق الثلاث انظر، Cornwallis, PP. 136ff.

(٢) المصدر نفسه، PP. 137 ff.

(٣) الحسيني : نسبة إلى ذوي حسن من الأشراف ذوي بركات . انظر : مقدمة عاتق بن غيث البلادي الذي قام بدراسة وتحقيق رحلة الشريف البركاتي المسماة : الرحلة اليمانية (بيروت : دار النفائس، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، ص ٩ - ١٣ .

(٤) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون الشريف الحسني الهاشمي، قائد الثورة العربية، وأول من قام في الحجاز مناديا باستقلال العرب عن العثمانيين. للمزيد انظر : مقدمة عاتق البلادي، لكتاب، الرحلة اليمانية، ص ١٤ - ١٧ .

(٥) المصدر نفسه، ص ٩ - ١٣ .

(٦) هذه الرحلة نشرت أكثر من مرة، وأول طبعة لها عام (١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ م)، وتلاها طباعات عديدة داخل المملكة العربية السعودية وخارجها . والنسخة التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة هي طبعة (بيروت : دار النفائس، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)، التي قام على تحقيقها والتعليق عليها الأستاذ عاتق بن غيث البلادي.

بلاد جازان وعسير، بل حاصر مدينة أبها وصارت على وشك السقوط في حوزته ^(١). والكتاب يشتمل على تفاصيل كثيرة عن سير حملة الشريف والمواقع التي نزل فيها، وكيف قابل جيوش الإدريسي، وكيف واصل طريقه عبر عقبة ساقين في تهامة بني شهر، ثم سار على السراة حتى وصل أبها، وفك حصار الإدريسي عنها، ثم عودته على الطريق الشرقي للسراة عبر بلاد شهران وبيشة حتى الطائف ومكة ^(٢).

الكتاب يشمل معلومات تاريخية وحضارية قيمة يصعب أن نجدها في مصدر آخر ^(٣). وفما يخص بلاد القنفذة يذكر وصول الشريف الحسين وجيشه إلى وادي دوقة شمال منطقة القنفذة في غرة جمادى الأولى عام (١٣٢٩هـ / ١٩١١م). ويشير إلى رخاء ذلك الوادي فيقول: "هو وادي خصب التربة، يزرع فيه الذرة والدخن والسمسم والقطن الهندي، وجميع محصولاته ترسل إلى ميناء دوقة، ومنها ترسل إلى مرافئ الحرمين الشريفين بواسطة سفن شراعية" ^(٤). ويذكر قدوم شيخ مشائخ زبيد علي الشريف الحسين وتقديم فروض الولاء والطاعة ^(٥)، ويشير إلى أودية قراء، وناوان، والأحسبة، وقنونا وتقديم عشائرها الطاعة لحكومة الشريف ^(٦) كما سمع بعض القصص التي ذكرها بعض الرواة في حضرة الشريف الحسين عن ممارسات رجال الإدريسي القساة وظلمهم الرعية جنوبي بلدة القنفذة ^(٧).

وعند دخول هذا الرحالة إلى القنفذة يصفها قائلاً: "بندر القنفذة واقع على البحر الأحمر، وهو مرفأً عظيم حتى أن البواخر البحرية تسير فيه إلى قريب الشاطئ. وهذه المدينة ثلثها مبني بأحجار، والثلثان الباقيان أكواخ مصنوعة من جريد النخل وخشب أشجار السمر والطرفاء، ولهم فيها صناعة جميلة واعتناء تام حتى إنها تمكث ثلاثين سنة تقريباً، وأغلب البيوت المبنية بالأحجار طبقة واحدة عدا محلات الحكومة والأغنياء من التجار فبيوتهم طبقتان" ^(٨).

(١) للمزيد عن امتداد النفوذ الإدريسي في جازان وعسير، وحصاره لأبها والسعي إلى الاستيلاء عليها، انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، ج٢، ص ٦٨٣ - ٧٠٠، عبد المنعم الجميعي. الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير (١٣٢٦هـ / ١٩٠٨ - ١٩٣٠م) (خميس مشيط: دار جرش للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، ص ٦ وما بعدها.

(٢) انظر: كتاب الرحلة اليمانية، تحقيق البلادي، ص ٣١، وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤١ - ٣٨.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٢.

"وبها محجر صحي^(١)، وثكنة للجند العثمانيين وجمرك، وجميعها مبنية بالحجر بناءً جميلاً^(٢)، وفي خارج البلد قلعة للحكومة العثمانية ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، وبهذه المدينة (القنفذة)^(٣)، سوق عظيم يوجد فيه جميع ما يحتاجه الإنسان من ملابس ومأكلاً وخلافة، وتردها أنواع الخضر، والليمون، والموز، والقطن، والسهم، والعدس وما شاكلها من أوديتها، أما الفواكه فترد لها من جهة بين تهامة والحجاز تسمى (المخوة)^(٤) وبها ثلاث حوانيت عظيمة لبيع أصناف البقالة، أحدهما لشخص رومي، والدجاج فيها بكثرة، وهو رخيص، فثمن الواحدة قرشان مصريان، وبها مسجدان عظيمان للصلاة ..."^(٥)

وفصل صاحب الرحلة الحديث عن بعض الجوانب الحضارية في نواح من منطقة القنفذة، مثل وادي بية وما يتميز به من ثراء اقتصادي، فقال: "وادي بية خصيب التربة، كثير المزروعات، يأتيه الماء من جبل الحجاز، والأراضي المزروعة به يبلغ قدرها سبعين ألف فدان تقريباً، من أجود الأطنان^(٦)، ويزرع في كل عام ثلاث مرات، ومزروعاته الذرة، والدخن، والسهم، والنيلة، والليمون، والخضر بكثرة، وطينته صفراء، وهو مقسم إلى حياض كتقسيم الأراضي الزراعية بمصر^(٧). وبهذا الوادي آبار كثيرة لسقي الأرض، غزيرة الماء، أما أشجاره فكثيرة، إذا كل قطعة أو حوض هي محفوفة بأشجار الأثل بشكل منتظم حتى إن المقبل على الوادي يظنه غابة لكثرة الأشجار فيه .."^(٨)

(١) لم يعد للمحاجر الصحية وجود بعد التقدم الطبي الذي تعيشه البلاد السعودية في وقتنا الحاضر. للمزيد عن تاريخ الحجر الصحي في الحجاز وما جاورها في العصر الحديث، انظر: جولدن صاري يلدر الحجر الصحي في الحجاز (١٨٦٥-١٩١٤ م)، ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) يوجد في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية، عشرات الوثائق التي تحدثت عن الجمرك، وبعض المعامل العسكرية في منطقة القنفذة وما جاورها خلال القرنين (١٣-١٤ هـ / ٢٠-٢١ م) .

(٣) إضافة من الباحث .

(٤) المخوة: بلدة صغيرة عند سفوح سروات غامد وزهران الغربية، وتقع في صدر وادي الأحسبة، وهي إحدى محافظات منطقة الباحة في وقتنا الحالي، وتبعد عن مكة (٢٥٠) كيلاً جنوباً (مشاهدات الباحث وزياراته لبلاد القنفذة وتهامة غامد وزهران في نهاية عام (١٤٢١ هـ / ٢٠١٠ م))

(٥) البركاتي، الرحلة، ص ٤٢-٤٣ .

(٦) لاشك أن وادي بية وقتونا يشتملان على تربة جيدة صالحة للزراعة، أما قول البركاتي إن مزروعات وادي بية تقدر بـ (٧٠) ألف فدان، فهذا رأي غير دقيق، وربما مبالغ فيه، وما ذكره البركاتي وجهة نظر تحتاج إلى قياسات ودراسات علمية دقيقة .

(٧) الحياض والقصبات التي شاهدها البركاتي في مزارع وادي بية نظام زراعي قديم عرفه العرب منذ العصور السابقة للإسلام . للمزيد عن نظام الزراعة والري عند العرب قديماً، انظر: جواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص ٤٥ وما بعدها

(٨) البركاتي: الرحلة، ص ٦١-٦٢ .

وفي مكان آخر يذكر البركاتي بأن القنفذة كانت إحدى المراكز الإدارية الرئيسية التابعة لمتصرفية عسير، ويطلق عليها قائم مقام القنفذة^(١)، كما نوه إلى أعداد السكان لبعض العشائر والقبائل في بلاد القنفذة، لكن ما أورده في هذا الجانب لم يكن بعيداً عن جانب التخمين والحصول على رواياته من أناس غير دقيقين في ذكر إحصائيات السكان، وهذه مشكلة وقع فيها معظم الرحالة السابقين الذين أشاروا إلى تعداد السكان في تلك النواحي^(٢).

وعن الصلات السياسية والمعارك الحربية التي وقعت على أرض القنفذة بين الشريف الحسين بن علي وجيوش الإدريسي، نجد صاحب الرحلة يسهب في الحديث عنها، ويوضح كيف تم الصدام بين الطرفين، وما بذل كل واحد منهما، وفي النهاية كانت الغلبة والنصر للشريف الحسين بن علي على قوات الإدريسي التي استطاع أن يهزمها ويدحرها ويستولي على الكثير من أسلحتها وعتادها^(٣).

(*) يتضح لنا مما دون صاحب الرحلة في هذا الشأن عدة أمور، نجلها أهمها في النقاط التالية :

١. هذا الكتاب يعد من المصادر الهامة والرئيسية في وصف المعارك التي حدثت عام (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، مع أن ما ذكره البركاتي لا يزال يحتاج إلى تحليل وتحقيق لكثير من الشخوص والوقائع الحربية التي حدثت.
٢. يظهر من حديث صاحب الرحلة تحيزه للشريف الحسين بن علي، ولا نلومه في ذلك، لأنه أحد أفراد الجيش المعادي للإدريسي، الذي جاء لإنقاذ مدينة أبها من حصار الأخير، ومن ثم يظهر في روايات البركاتي المبالغة في النصر الذي أحرزه الشريف علي الإدريسي، والذي يبدو أن جيوشه انسحبت من أرض

(١) متصرفية عسير في أبها خلال النفوذ العثماني الأخير (١٣٢٧.١٢٨٩هـ / ١٩١٨.١٨٧٢م)، كان يتبع لها ستة مراكز رئيسية، وكل مركز يحمل اسم قائم مقام مثل (القنفذة، ومحاليل، والشعيبين ببلاد رجال ألمع، والنماص، وورغان في بلاد غامد، وصيبا في جازان) . انظر: غيثان بن جريس . أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ص ٥٢ . للمزيد انظر: البركاتي، الرحلة، ص ٩٠، ١٢٢، ١٢٣ .

(٢) كورنواليس، وروبن بدول، والبركاتي، وقلبي، وتوتشيل أشاروا إلى عدد السكان في بعض نواحي القنفذة وجميعهم غير دقيقين في رواياتهم لأنهم كانوا يستندون على مصادر ضعيفة بعيدة عن توخي الدقة فيما يذكرون .

(٣) انظر: البركاتي، الرحلة، ص ٦١ - ٦٩ .

المعركة دون خسائر كبيرة . ودليلنا على ذلك أننا نجد الإدريسي وجيوشه وإن انسحبت من بلدة القنفذة وما حولها، ومن حصار أبها، إلا أنهم بقوا قوة متماسكة وذات شأن سياسي وعسكري لبعض الوقت، وإن الشريف الحسين عاد إلى الحجاز، ولم يدم طويلاً في سلطانه^(١).

١١. الشريف عبد الله بن الحسين . في كتابه مذكراتي^(٢) (ق ١٤ هـ / ٢٠ م) :

عبد الله بن الشريف الحسين بن علي، لا ننظر إليه من فئة الرحالة، وسبب إدراجه في هذه الدراسة، أنه دون كتابه الموسوم بـ : مذكراتي، وتحدث فيه عن تجاربه وخبراته منذ ولادته حتى خروج الأشراف من الحجاز^(٣)، واستقرارهم في العراق والأردن وما جاورهما^(٤). والذي دفعنا لإيراده ضمن الرحالة الآخرين في هذا البحث، عدة أسباب أهمها :

١. الشريف عبد الله كان أحد القادة الرئيسيين في الحملة العسكرية التي قادها والده إلى أبها لفك حصار الإدريسي عنها، وإذا كان الشريف البركاتي في كتابه الرحلة اليمانية قد أسهب في ذكر الكثير من القضايا التاريخية والحضارية التي شاهدها أثناء سيره مع الحملة الأنفة الذكر، إلا أن الشريف عبد الله لم يتعرض لشيء مما ذكر البركاتي.

٢. الشيء الوحيد الذي فصل الشريف عبد الله الحديث فيه، في حوالي ثمان صفحات من القطع المتوسط، هو ما جرى في معركة قوز أبا العير (بلعير) التي حدثت بين الإدريسي وجيوش الشريف في بلاد القوز، وكان الشريف عبد الله أحد أقطاب تلك المعركة^(٥). ويتضح من تفاصيل كل من الشريفين عبد الله والبركاتي أنهما ذكرا ما جرى في تلك المعركة من استعدادات من الطرفين وما حصل فيها من كروفر حتى انتهت بانتصار الشريف الحسين على جيش

(١) للمزيد من التفاصيل عن تاريخ الإدريسي والشريف الحسين بن علي بعد أحداث عام (١٢٢٩ هـ / ١٩١١ م) انظر: العقيلي، تاريخ المخلاف، ج ٢، ص ٧٠١ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج ٢، (مطبوعات دار الملك عبد العزيز، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م)، ص ١٤٠، ١٨١ وما بعدها.

(٢) انظر: عبد الله بن الحسين، مذكراتي (بيروت: الأملية للنشر والتوزيع، د. ت) ص ٦٢ وما بعدها.

(٣) للمزيد عن نهاية تاريخ الأشراف في الحجاز انظر: العثيمين، المصدر نفسه، ص ١٤٠، ١٨٢ وما بعدها.

(٤) عبد الله بن الحسين، مذكراتي، ص ٦٢ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٤ وما بعدها.

الإدريسي مع الإشارة إلى انسحاب الأخير منهزماً وترك الشيء الكثير من سلاحه ومؤنه الحربية، وكذلك فقدان الكثير من رجاله الذين سقطوا في أرض المعركة^(١).

٣. كما أشرنا سابقاً انحياز البركاتي في روايته عما جرى في أرض المعركة، وما حاز عليه الشريف من نصر باهر على خصومه، وقد نهج الشريف عبد الله المنهج نفسه، وأوضح عدوان الإدريسي وجوره ثم ما ناله من هزيمة واندحار أمام جيوش الشريف الباسلة. والذي درسناه في مصادر ووثائق أخرى أنه كان في صفوف الإدريسي الكثير من العشائر والقبائل التهامية القاطنة جنوب القنفذة إلى حلي والبرك وبارق ومحایل والقحمة والشقيق وصبيا وغيرها. ونعلم أن رجال هذه النواحي كانوا على درجة عالية من البسالة والشجاعة، ومن ثم فمن المؤكد أنهم أبلوا بلاءً حسناً في التصدي للشريف وجيوشه، بل وألحقوا بهم الكثير من الخسائر في رجالهم ومؤنهم الحربية^(٢).

١٢. هاري سانت جون فلبلي : (H. St. J. Philby) (ق ١٤٠٤ هـ / ٢٠ م) :

جون فلبلي، إنجليزي الجنسية، يدعى اختصاراً جاك، أو (عبد الله فلبلي) من مواليد (١٨٨٥ م)، انخرط بداية حياته في وظائف عدة بالحكومة البريطانية، ثم جاء إلى الجزيرة العربية عام (١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م)، وقابل الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في العام نفسه^(٣).

يعد فلبلي أفضل وأكثر من كتب عن الجزيرة العربية، وبخاصة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود، يقول عنه الجاسر: " الحقيقة التي يجب أن يقال، هي : أن فلبلي أسدى إلى الجزيرة العربية يداً قصر عن مدها إليها من سِواه " ^(٤). ويذكر عنه المستشرق جورج رنتز (George rentz) " أنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد " ^(٥).

(١) انظر: البركاتي، ص ٤٥. ٥٥، عبد الله بن الحسين، مذكراتي، ص ٦٣ وما بعدها.

(٢) يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تعكس ما جرى من أحداث في معارك عام (١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م)، وما قام به الإدريسي ورجاله من بطولات في تلك الحروب. المصدر: مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق العامة) (وثائق القرن ١٤ هـ / ٢٠ م).

(٣) حمد الجاسر. (فيليبي: رحلاته في البلاد العربية). مجلة العرب. (١٤٠٩. ١٤١٠ هـ) مج، ١٠٨. ١٠٥.

(٤) المصدر نفسه. للمزيد انظر: ابن جريس، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ص ١٢٦.

(٥) جورج رنتز " فلبلي مؤرخاً للملكة العربية السعودية " ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي. مجلة الدرعية السنة الأولى، عدد (٢) (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ص ٦١.

يقصد الجزيرة العربية - منوهاً إلى أن السبب في تلك الغزارة ترجع إلى مؤهلات فلبلي الجيدة في مجال الكتابة التاريخية وكذلك معرفته وزيارته معظم نواحي الجزيرة العربية^(١).

وإذا كان فلبلي قد تفانى في عمله مع حكومته بريطانيا، إلا أنه اتصل بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، وأصبح من المقربين إليه، بل أرسله في العديد من المهمات، وهذا ما ذكره فلبلي في كتبه ومذكراته^(٢). وله عشرات الكتب والدراسات التي كتبت في الأساس بلغة المؤلف الرئيسية، (الإنجليزية)، وترجم العديد منها إلى العديد من اللغات، وبخاصة اللغة العربية^(٣).

لفلبلي كتاب بعنوان: **مرتفعات الجزيرة العربية (Arabian Highlands)**، طبع باللغة الإنجليزية في مطابع كورنل أثاكا في نيويورك عام (١٩٧٦م)، ويقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط، قام على نشره آنذاك جمعية الشرق الأوسط واشنطن دي. سي. (Washington. D. C)^(٤) (وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على النسخة العربية التي قامت مكتبة العبيكان مشكورة على ترجمتها وطباعتها ونشرها عام ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م)^(٥).

والكتاب يقع في ستة أبواب تحتوي على (٣٣) فصلاً، اشتملت على الحديث عن أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية، ابتداءً من الطائف إلى بيشة وأبها وخميس مشيط وما حولها، ثم نجران، وجازان، وأخيراً البلاد الساحلية الممتدة من جازان إلى مكة وجدة^(٦).

(١) مكث فلبلي حوالي (٤٠) سنة متجولاً وقاطناً في الجزيرة العربية (١٣٢٦. ١٣٧٥هـ / ١٩١٧. ١٩٥٥م). جورج رنتز، ص ٦١-٦٣، للمزيد من التفاصيل عن فلبلي، انظر: كتاب اليزابيث مونرو (Elizabeth Monroe) في كتابها الشهير: فلبلي العرب، الذي طبع عام (١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م) ص ٣٠٧-٣١٢.

(٢) المصدر نفسه. للمزيد انظر: ابن جريس، **بحوث في تاريخ عسير**، ١٢٦-١٢٧.

(٣) هناك مؤلفات عديدة لفلبلي تم ترجمتها إلى اللغة العربية ومكتبة العبيكان مشكورة، ترجمت خلال العشرين سنة الماضية أكثر من عشرة من تلك المؤلفات. للمزيد عن عناوين تلك الكتب وغيرها، انظر: ابن جريس، **بحوث**، ١٢٧، ج. د. نورتون "فلبلي رجل الجزيرة العربية". مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية (الكويت، العدد الثالث، جمادى الآخرة (١٣٩٥هـ)، ص ١٥١-١٥٩.

(٤) تم الاطلاع على هذه النسخة في صورتها الأصلية الإنجليزية، ويوجد نسخة من الكتاب في مكتبة الباحث، مع العلم أن هناك طبعات أخرى لهذا الكتاب سابقة لعام (١٩٧٦م)، لم نستطع الاطلاع عليها حتى الآن.

(٥) الكتاب يقع في مجلدين كبيرين، وعدد صفحاتهما (١٤٤٩)، قام بترجمتها بتمعيد من مكتبة العبيكان د. حسن مصطفى حسن، ومراجعة وتعليق وتقديم أ. د غيثان بن علي بن جريس.

(٦) للمزيد من التفاصيل عن كتاب فلبلي (المرتفعات)، انظر: غيثان بن جريس (إقليم عسير في عيون الرحالة الأوروبيين) ورقة عمل قدمت ضمن ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة من (٨-١٠/٨/١٤٢٠هـ - ١٦-٨/١١/١٩٩٩م) ونشرت في كتاب ضمن أعمال الندوة بعنوان: العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ

وما يخصنا في موضوع البحث الذي بين أيدينا هو الفصل الثالث والثلاثون في الباب السادس، الموسوم بـ: الطريق الساحلي (محافظة القنفذة)، ويقع في (٥٩) صفحة بدأها من بلدة القحمة إلى جدة ومكة عام (١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م)^(١).

أشار هذا الرحالة إلى بعض الطيور، والنباتات والحشرات التي شاهدها على طول الطريق من القحمة إلى بلديتي القنفذة والليث^(٢)، كما نوه إلى طبيعة الأودية والجبال والوهاد والسبخات وأحياناً بعض الغابات التي شاهدها أثناء السير في أنحاء منطقة القنفذة^(٣)، لم يغفل أيضاً عن ذكر بعض النشاطات الاقتصادية وبخاصة التجارة وحركة الأسواق في بلدة القنفذة وقرية المظيلف وما يصدر منها أو إليها من السلع الداخلية والخارجية^(٤).

أورد بعض المعلومات الجميلة عن بعض المراكز الحضرية على طريق الحج والتجارة من البرك إلى القنفذة، فيقول عن الأولى (البرك) : " يتكون جزؤها الرئيسي من حوالي مئة من العيش التي تشبه خلايا النحل، إلى جانب البناء المركزي للحكومة بلونه الأبيض، ويقع في وسطه عدد من المنازل المبنية البيضاء من حولها . يقف هذا القسم من القرية فوق سلسلة حمم بركانية منخفضة تطل على البحر، وعلى حافتها حقول قليلة تم إعادها للزراعة، ويقع قسم آخر، وهو قرية صغيرة تشتمل على بعض المباني المطلية بالجبس عند سفح ربوة على يميننا، كان هناك إلى جانب هذين القسمين للقرية، القلعة التي تقف بارزة فوق قمة ربوة منخفضة، يقع خليج خور البرك على يسار القرية، وهو مرسى طويل محمي أكثر منه ميناء ... " ^(٥) . ويذكر فيلبي إضافات كثيرة عن سور البرك القديم، وبعض الآثار الظاهرة للعيان من حول البلدة، ويشير إلى بعض

(القاهرة : منشورات الاتحاد، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) ص ٤٠٩ وما بعدها، للمؤلف نفسه " جنوب السعودية في كتاب : مرتفعات الجزيرة العربية . لهاري سانت جون فليبي " نشر ضمن أعمال ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، حصاد (١٢) في كتاب : العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة (القاهرة : منشورات الاتحاد، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م)، ص ٢٤١ وما بعدها .

(١) المصدران نفسهما . للمزيد انظر : كتاب فيلبي (المرتفعات) النسخة العربية (ترجمة ونشر مكتبة العبيكان)، ج ٢، ص ١٢٦٢ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٦٩ .

موظفي الميناء والجمارك الذين قابلهم في تلك الناحية ^(١). ولم ينس في حديثه إعطاء بعض التفاصيل عن وادي حلي، مع الإشارة إلى بعض قراه، وبدائية نمط العمارة في تلك الناحية، وكيف كان القش وسعف النخل هو الأساس في بناء الكثير من المنازل هناك ^(٢).

وعند وصول هذا الرحالة إلى بلدة القنفذة يورد بعض مشاهداته عنها، فيقول: " .. سرعان ما ترجلنا عن الدواب عند مدخل منزل الحكومة، كان عبد الرحمن بن مبارك أمير القنفذة يرأس المجلس، غير أنه أمر بانصراف حشد موكله وخصومه، وانصرف لقضاء حاجاتنا وتلبية مطالبنا ... أعد منزلاً لضيافتنا أثناء ما كنا نحتسي القهوة مع الحاكم ونأكل التمر وجدت نفسي عند الظهر داخل بناء إضافي من الخشب فوق سطح أحد المباني المبنية من الشعاب المرجانية، وهو أحد المباني التي تقع على امتداد الجبهة البحرية التي هي متنزه القنفذة، بينما شغل رفاقي الغرف في الطابقين أسفل مني، كان المنزل واحداً من بين العديد التي تكون الجناح الإداري والتجاري ومقر سكن الطبقة الراقية ويقع عند الطرف الشمالي للبلدة " ^(٣)، وذكر أن القنفذة " قرية كبيرة غير منتظمة أكثر منها بلدة، كانت عيش القسم الأكثر فقراً من السكان، على ضواحي القرية مهجورة وبائسة بما يفوق الوصف، وعلى عكس هذا فإن أحسن المنازل كانت في الحي التجاري ذات واجهات فخمة مطلية بالجبس، وتدل على درجة عالية من الازدهار والتطور . توجد مساحة كبيرة خارج مباني الرئاسة الحكومية تؤدي وظيفة المستودع للبضائع التجارية ... " ^(٤). ويتحدث عن سوق القنفذة، فيقول: " كان السوق في قمة نشاطه عندما مررنا به، ويبدو أنه غني بالبضائع المحلية والمستوردة " ^(٥). كانت تجارة البلد في أيدي الهنود والحضارمة، وقد قيل: إن هناك حوالي ثلاثين أسرة هندية وخمسين أسرة حضرية مقيمة في البلد وتعتمد على التجارة .. ^(٦). ويمثل البيوت التجارية الأوربية القائمة في جدة مندوبون محليون لها هنا . كان بقية السكان العرب

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٧٠-١٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٨١-١٢٨٢ .

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩٢ . للمزيد من التفاصيل عن تطور تاريخ الإمارة في بلاد القنفذة، انظر القسم الثاني من هذا الكتاب .

(٤) المصدر نفسه ج ٢، ص ١٢٩٢ .

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩٣ .

(٦) المصدر نفسه، يوجد في حوزة الباحث مئات الوثائق الإدارية والمالية الخاصة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي في بلاد القنفذة، وربما تصدر في سفر منفصل في المستقبل (بإذن الله تعالى) .

معظمهم مقيمون جاؤوا من قرى مقاطعة وادي قنونا، وبلا شك تتخللهم عناصر من مناطق أبعد من ذلك ..^(١)

ويشير هذا الرحالة الأوربي إلى بعض الجوانب الدينية في بلدة القنفذة، وبخاصة المساجد، فيقول: " يوجد بالقنفذة ثلاثة مساجد، ولا توجد بها مبان أخرى عامة ذات مغزى^(٢)، وكان من أبرز قاطنيها في هذا الوقت محمد الأمين الشنقيطي"^(٣). ويذكر فلبس بعض الرحالة الأوربيين الذين شاهدوا القنفذة في القرن (١٣ هـ / ١٩ م)، فيقول: " وصل إلى القنفذة الفرنسيان أي كومبس، وم. تاميزيه قادمين من جدة في السابع عشر من فبراير (١٨٣٥ م)^(٤)، وقد وجداها مكانا ذا أهمية ضئيلة تتاجر فقط مع جدة، كانت مياهها جيدة إلى حد ما، غير أن مناخها خاصة في الشتاء كان ثقيلا وغير صحي ويؤدي إلى أوجاع كثيرة .."^(٥). والجميل في شروحات هذا الرحالة أنه يورد بعض التفاصيل عن القنفذة نقلا مما سجله تاميزيه عن تلك الناحية خلال النصف الأول من القرن (١٣ هـ / ١٩ م) فيقول: " .. علق تاميزيه فيما سجله عن جدة أنها أفضل موقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وأن القنفذة الأسوأ، ويعزو هذا إلى الرياح الجنوبية التي تهب باستمرار .."^(٦).

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٢٩٣ .

(٢) هذا الحديث في أوائل النصف الثاني من القرن الهجري الماضي، ومن يزور منطقة القنفذة اليوم يجد بها مئات المساجد المتفاوتة في الصغر والكبر، بل يوجد بها آلاف العمارات المسلحة والمتعددة الأدوار، وهذا يعكس ما تمر به القنفذة وغيرها في عصرنا الحاضر من نمو وازدهار، نسأل الله أن يحفظ ديننا وبلادنا من كل سوء إنه على كل شيء قدير .

(٣) الشيخ الشنقيطي جاء إلى بلدة البرك عام (١٢٤٣ هـ / ١٩٢٤ م) وعمل بها بعض الوقت ثم ذهب إلى جازان مع أمير القنفذة، وأخيرا استقر في بلدة القنفذة حتى مات انظر: فلبس، مرتفعات، ج ٢، ص ١٢٩٤ . حاشية رقم (١) .

(٤) هذان الفرنسيان ضمن جيوش محمد علي باشا التي جاءت إلى جزيرة العرب للقضاء على الدولة السعودية الأولى، والسيطرة على بلاد عسير التي كانت تساعد الأيمن لمناصرة ومساندة آل سعود الأوائل. للمزيد عن الرحالة الطبيب تاميزيه، انظر: كتابه: رحلة في بلاد العرب، ترجمة محمد آل زلفة، ص ٢١ وما بعدها . وهذان الفرنسيان وغيرهما من الرحالة الذين قدما إلى القنفذة ولم نستطع العثور على مدوناتهم التي كتبوها عن بلاد القنفذة أو غيرها، حذا أن نرى من طلابنا أو طالباتنا في الدراسات العليا، أو الباحثين والدارسين الآخرين من يستكمل أولئك الرحالة، أو يصحح ما وقعنا فيه من أخطاء أو نقص في هذه الدراسة .

(٥) فلبس، مرتفعات، ج ٢، ص ١٢٩٤ . ١٢٩٥ .

(٦) يشير فلبس نقلا عن تاميزيه بأن منازل القنفذة كانت من الطين، وكان يطوق تلك البلدة سور من الحجر، كما أشار إلى شروحات ذلك الرحالة الفرنسي حول الصدامات العسكرية والحربية التي وقعت بين جيوش محمد علي باشا وجيوش عسير في محيط منطقة القنفذة . انظر: مرتفعات الجزيرة العربية، ج ٢، ص ١٢٩٥ . وعن الصراع بين أهالي عسير وجيوش محمد باشا، انظر: أحمد آل فائع، ص ٢٤٧ وما بعدها .

١٣. ك. س. تويتشل (K. S. Twitchell) (ق ١٤هـ / ق ٢٠م).

تويتشل أحد الرواد الأمريكيين الذين جاؤوا إلى جزيرة العرب في بداية النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) (١٣٥٠ - ١٣٥١هـ / ١٩٣١-١٩٣٢م)، من أجل البحث عن المياه والمصادر الطبيعية في الحجاز وجزيرة العرب عموماً. وقد قام بالعديد من الرحلات في أجزاء عديدة من هذه البلاد، ودون الكثير من التفاصيل التي جمعها في جولاته في كتابه الموسوم بـ: المملكة العربية السعودية وتطورات مصادرها الطبيعية ^(١) (Saudi Arabian : With an Account of its Natural resources)، ويتضح من مادة هذا الكتاب أن المؤلف كان على صلة قوية بملك المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، بل قضى فترة طويلة ينتقل في أرجاء البلاد السعودية، لهذا يقول عنه حافظ وهبة، مقدم كتابه الأنف الذكر والمترجم إلى اللغة العربية: "إني أعتقد أنه لم يتح لأمريكي، بل ولا بريطاني، إذا استثنينا مستر فيلبي، ما أتيح لمسترت تويتشل من التجول والبحث، ونجد هذا مفصلاً في كتابه: المملكة العربية السعودية، الذي نقدم ترجمته للقراء". وقال تويتشل نفسه "أنه أكثر من أي أمريكي آخر حتى سنة (١٩٤٦م) على أوثق صلة لأطول مدة بالملك عبد العزيز بن سعود، وهناك الكثير من بقاع البلاد السعودية لم يسبق أن زارها سواي من غير المسلمين، وكنت أستطيع التجوال فيها بحكم عملي مع الحكومة السعودية.."^(٢).

وكتاب تويتشل الأنف الذكر يشتمل على (١٧) مبحثاً جميعها تدور حول أجزاء عديدة من التاريخ السياسي والحضاري الذي مرت به المملكة العربية السعودية أثناء التأسيس، ومن البلدان التي زارها هذا الرحالة في الخمسينيات من القرن الهجري الماضي بلاد القنفذة التي قال عنها^(٣): "القنفذة ميناء هام لعسير، ويبلغ سكانها من (٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠) نسمة، وهي منطقة تقع خلف نطاق الساحل في الهضاب

(١) صدر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإنجليزية من دار قرين وود في نيويورك Green Wood Press New York عام (١٩٤٧م)، ثم أعيد طبعته عدة مرات، وأخيراً ترجمه الأستاذ شكيب الأموي إلى اللغة العربية ونشرته دار إحياء الكتب العربية في القاهرة عام ١٩٥٥م وهي النسخة التي سوف نعتمد عليها في هذه الدراسة. انظر: كتاب تويتشل، المملكة العربية السعودية (النسخة العربية)، ص ٢.

(٢) انظر: مقدمة المؤلف (النسخة العربية)، ص ٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢ وما بعدها. يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تعكس استقبال تويتشل في عسير وجازان، وما بذل أمراء تلك النواحي والشيخ عبد الوهاب أبو ملحمة رئيس ماليات الجنوب من تسهيلات لهذا المستشرق أثناء تجواله وتنقلاته في نواحي عديدة من جنوبي البلاد السعودية. المصدر: مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق العلمية) وثائق القرن (١٤هـ / ٢٠م).

الواقعة في مقدمة سلسلة جبال الحجاز - عسير - على مسافة تتراوح من (١٠-١٢) ميلاً، باتجاه الشرق . وعمارتها المؤلفة من طابقين، ذات سطح منبسط ونوافذ واسعة ومتعددة، وتبيض بالجير من الداخل والخارج . أما أماكن السكن المتواضعة فهي ذات جوانب وسطوح من القش محبوكة فوق إطار خشبي كثيف، ويجلب إليها الماء من حفر تبعد (٥، ٢) ميل إلى الداخل ويعتبر تحسين هذه البلدة وبلدة أبها والنهوض بهما من الضروريات للمصلحة العامة للإقليم كله ...^(١)

في مكان آخر يشير تويتشل إلى رداءة الطرق التي تربط مكة بجازان عبر الساحل، لما يوجد بها من رمال كثيفة، ويقترح أن يكون هناك طريق جيد من الجهة الشرقية التهامية، القريبة من سفوح السروات الغربية، ثم تربط تلك الطريق بطرق عرضية تربط ما بين الساحل والأجزاء التهامية الداخلية، وهذا مما ينمي النشاط التجاري والاقتصادي في البلاد^(٢).

١٤. ولفرد شيجر (ق ١٤هـ / ٢٠م) :

ولد هذا الرحالة البريطاني، ولفرد شيجر، في أديس أبابا عام (١٢٢٨هـ / ١٩١٠م)، ودرس في جامعة أكسفورد، ثم عمل في السودان والحبشة وسوريا، ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية (١٣٥٩-١٣٦٥هـ / ١٩٤٠-١٩٤٥م) استهوته المغامرات فقام بالعديد من الرحلات في عدد من الأقطار المختلفة ومنها جزيرة العرب^(٣). وفي عام (١٣٦٥-١٣٦٦هـ / ١٩٤٥-١٩٤٦م) قام برحلة عبر تهامة وعسير وجبال تهامة، ودون تفصيلات جيدة عن المجتمعات التي زارها^(٤). وكان من مهامه في تلك الرحلة أنه

(١) تويتشل، المملكة، ص ٧٨ . والقنفذة بدون شك كانت من البلدان الهامة جداً ليس لأبها فحسب وإنما لعموم منطقة عسير حيث ترد إليها السلع والتجارات البحرية عن طريق القنفذة . يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تعود إلى القرنين (١٤-١٩هـ / ٢٠م) وتؤكد على نشاط وأهمية ميناء القنفذة لبلاد تهامة والسرعة الممتدة من أبها ومحال عسير جنوباً إلى بلاد غامد وزهران شمالاً .

(٢) هذه اقتراحات تويتشل، والزائر الآن لبلاد تهامة الممتدة من جازان إلى مكة يجدها أصبحت مرتبطة بشبكة من الطرق البرية الجيدة التي تساعد على دفع عجلة التنمية والتحضر في تلك النواحي . ومثل هذه الخدمات أصبحت منتشرة في كل بلدة أو ريف أو ناحية من نواحي المملكة العربية السعودية . فله الحمد والفضل والشكر على ما من به من خيرات لا تعد ولا تحصى . كما نشكر دولتنا الرشيدة وندعو لها بالتوفيق والتمكين والسداد . (والله من وراء القصد) .

(٣) انظر: ولفرد شيجر "رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز" ترجمة د. أحمد عمر الزيلعي . مجلة الدائرة، العدد (١٤) . السنة (١٤) (الرياض: دار الملك عبد العزيز، شوال ١٤٠٨هـ / مايو ١٩٨٨م)، ص ١٢٣-٩٣ .

(٤) مقدمة المترجم للدراسة الأنفة الذكر، ص ٩٣ . نشرت هذه المعلومات لأول مرة باللغة الإنجليزية عام (١٣٦٧هـ / ١٩٤٧م) في المجلة الجغرافية التي تصدر عن الجمعية الجغرافية الملكية في لندن .

حصل على إذن^(١) من جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود لدراسة أوضاع الجراد الذي اجتاحت نواحي عديدة من الجزيرة العربية^(٢). كان لذلك الإذن الأثر الكبير في تسهيل مهمته وحصوله على المساعدات والتسهيلات من أمراء وأعيان المناطق التي مر عليها^(٣) ويظهر من قراءة رحلة تسيجر أنه تجنب وصف الموائد في بيوت من استضافوه، أو الحديث عن نفسه، كما يفعل كثير من الرحالة الذين يسهبون في هذا الجانب، وركز على تدوين المعلومات والمشاهدات العلمية المجردة. وهذا مما جعل مادة هذا الرحالة على محدودية معلوماتها ذات قيمة علمية هامة ورائدة^(٤).

بدأ هذا المستشرق رحلته من وادي الأحسية في منطقة القنفذة، ذاهباً إلى بلدة المخواة، ثم عرج على بعض النواحي من أرض العرضيتين، ثم أجزاء من تهامة بني شهر إلى بلاد حلي والبرك ثم محاليل وواصل سيره في أجزاء أخرى من جازان وعسير السراة وسروات غامد وزهران حتى مدينة الطائف^(٥). واشتملت هذه الرحلة على معلومات دقيقة وجميلة عن أجزاء من بلاد القنفذة وما جاورها، يصعب أن نجدها في أي مصدر آخر، ولهذا نورد هنا كما وصلتنا حتى تعم فائدتها، ويطلع عليها أكبر شريحة من القراء الكرام، بدلاً من اختزالها في نقاط مختصرة ومحدودة، فهو يقول: "بدأت رحلتي من

(١) حصوله على إذن من الملك عبد العزيز سهلت له الرحلة التي استغرق فيها ثلاثة شهور، أورد ذلك في آخر مدونته فقال: "... أمراء المناطق والمراكز الذين قابلتهم خلال هذه الشهور الثلاثة، قدموا لي الكثير من المساعدة وكرم الضيافة التي اشتهرت بها الجزيرة العربية، وقد سافرت بين قبائل كثيرة لم يقابل أهلها إلا قليل من الفرنجيين المسيحيين، هذا إذا كانوا قد قابلوا أياً منهم، وكنت دائماً استقبل استقبالا جيدا، لأن المسافر الذي يسافر (في هذه البلاد) بإذن ابن سعود، يتكفل له في كل مكان بالأمن والمساعدة " ولفرد تسيجر، ص ١١٢.

(٢) كان الجراد يمثل خطراً كبيراً خلال العهود الماضية فيحتاج الزروع، ويلحق بها الكثير من الخراب والدمار وكانت الدول والمؤسسات الرسمية والأهلية تعاني من كوارث الجراد، وتسعى إلى الحد منه ومن مخاطره على حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية.

(٣) لم يكن غريباً أن يجد هذا المستشرق مساعدات من الدولة السعودية، فهذا ديدن الملك عبد العزيز الذي كان يسعى إلى استقطاب الكفاءات العلمية الجيدة ومساعدتها لدراسة أحوال البلاد، وهذا فعلاً ما حصل مع علماء ورحالة آخرين مثل قلبي وتويتشل وغيرهما. إن موضوع العلماء العرب وغير العرب الذين اتصلوا بابن سعود ووجدوا منه الدعم والتأييد جدير بالبحث والدراسة حبذا أن يظهر من طلابنا وطالباتنا في برامج الدراسات العليا من يتصدى لمثل هذا الموضوع الجيد.

(٤) انظر: نص الرحلة المترجم إلى العربية، مجلة الدارة (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص ٩٣-١٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٩٣-١١٢. يذكر تسيجر أنه ذهب في رحلة أخرى عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) عبر طريق الساحل من القنفذة إلى صبيا وجازان وأبو عريش وجبل فيفا ثم إلى ظهران الجنوب ونجران وأبها في عسير.

وادي الأحسبة إلى الشمال من القنفذة، وكان بصحبتني أحد أخوياء الإمارة، وهو شاب من الأشراف، وجَمَّالان، وأربعة من الجمال المستكراة التي تسير، حسب العرف السائد في تهامة، ورؤوسها مقطورة إلى ذيول بعضها البعض، حيث لا يسمح لهذه الجمال بأن ترعى، بل إن افواهاها تكمم، بصفة مؤقتة، بسلال على هيئة شبكة ذات فتحات^(١). يقدم من خلالها بواسطة اليد غذاء الجمال المكون من قصب الذرة الذي تحمله على هيئة حزميتين كبيرتين توضعان فوق الأحمال من الجانبين، وهي في الغالب لا تحصل على كفايتها من العلف لما في ذلك من الصعوبة وارتفاع التكلفة، وتستطيع جمال تهامة أن تنقل أحمالاً ثقيلة، لكنها غير قادرة على الحركة فوق الصخور، وسرعان ما يصيبها الحفا عندما تسير على أرضية حجرية^(٢)، وهي ترد الماء يومياً وأحياناً مرتين في اليوم عندما يكون الجو حاراً، ويسافر هؤلاء الأعراب ليلاً خلال الصيف، وعندما ينامون يتكورون فوق الأحمال، وجمالهم تسلك الطريق دونما تردد^(٣).

" وفي طريقنا إلى المخواة^(٤)، سلكننا وادي الأحسبة حيث يسكن الأشراف العبادلة في السهل الساحلي من هذا الوادي، لكنه سرعان ما يدخل الطريق في منطقة صخرية وعرة، لا توجد فيها إلا قرى قليلة، وزراعة حقيرة، وكانت تقع أمامنا بمسافة بعيدة أصدر جبال الحجاز^(٥)، وبالقرب منا تنتصب قممتان من الجرانيت يصل ارتفاعهما (٨٠٠٠) قدم هما: شدا اليماني، وشدا الشامي، وهما أحد المعالم البارزة التي يسهل التعرف عليهما من بعيد^(٦). وينمو شجر البن على هذين الجبلين، بالرغم أنه لم يستتبت

(١) هذه السلال تعرف محلياً باسم الفدائم، ومفردها فدامة، وهي تصنع من الطفي أو الحصير الذي يصنع من ورق أشجار الدوم الموجود بكثرة في تهامة. شيجر، الرحلة، ص ٩٤، حاشية رقم (٣).

(٢) الجمال تسير في الأراضي السهلة والمستوية بشكل أفضل وأمن من المنحدرات أو الطرق الجبلية الوعرة.

(٣) ولفرد شيجر، ص ٩٤. الجمال من الحيوانات الأليفة الموجودة إلى حد ما في أرض تهامة، لكن صحاري نجد وما شابهها مليئة بالجمال المتنوعة في أشكالها، وأنواعها، وفصائلها، وتعد من الوسائل الرئيسية لحمل الأمتعة والأثقال بخلاف تهامة التي تتوفر فيها الحمير بكثرة لغرض نفسه.

(٤) المخواة: بلدة في تهامة غامد وهران، إحدى محافظات منطقة الباحة اليوم. مشاهدات الباحث لهذه المدينة خلال عامي (١٤٢٤هـ - ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢ - ٢٠١٠م). كما اصدرت عنها بعض الدراسات في الجزئين (٥، ١٢) من موسوعة (القول المكتوب في تاريخ الجنوب).

(٥) الأصدار جمع (صدر) هي: المنحدرات الغربية لجبال السروات الممتدة من اليمن إلى الحجاز.

(٦) هذان الجبلان على مقربة من بلدة المخواة، ويعرفان باسم: شدا الأعلى وشدا الأسفل. الأول: يقع إلى الجنوب من مدينة قلوة وأغلب سكانه من قبيلة زهران، والثاني إلى الجنوب من شدا الأعلى ويسكنه بعض بطون من قبيلة غامد. على السلوك. المعجم الجغرافي للبلاد السعودية

حتى الآن على سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة إلى الشمال منها^(١).

وعند وصول هذا الرحالة إلى المخواة ذكر بعض المعلومات التاريخية القيمة عن تلال البلدة، ثم خرج منها متجهاً إلى بلاد العرضيتين ونواحي أخرى من بلاد القنفذة وتهامة عسير^(٢)، وعند ذهابه من المخواة قال: "وعند مغادرتنا المخواة، سرنا عبر تلال جبلية ذات حوائط عمودية شديدة الانحدار، يبلغ ارتفاعها فوقنا (٣٠٠٠ قدم). وهذه المنطقة تخص فخذاً من قبيلة غامد القوية التي يسكن معظمها في الجبال إلى الشرق من هذا الموقع^(٣)".

وتتناثر مزارعهم على طول وادي بطاط^(٤). حيث اكتظت ضفتاه بالزراعة التي تروى من الآبار والسيول معا. ثم اجتزنا وادي قنونا إلى الورا من بطاط، ودخلنا بلاد بلعريان^(٥) وهي منطقة جرانيتية خصبة، يقوم على حراستها العديد من أبراج المراقبة. ووصلنا في اليوم التالي إلى مركز إمارة ثريان الصغيرة حيث احتفى بنا أميرها وأكرمنا^(٦). ثم سافرنا من هنا في برد الصباح، وسط حشد من القرويين المتجهين على الحمير والجمال المحملة إلى سوق الثلاثاء الواقع على ضفتي وادي بية، في وسط بيئة من التلال المكونة من الصخور الجرانيتية، حيث يكتظ هذا الوادي بأشجار النخيل.

(غامد وزهران) (الرياض : منشورات اليمامة، وبيروت، ١٣٩١ هـ) ص ٣٤١، ٣٤٢. ويوجد في هذين الجبلين الكثير من النقوش والرسومات الصخرية، بهذا أن يظهر أحد الباحثين الأثاريين فيدرس هذه الآثار التي ربما تحتوي على الكثير من التفاصيل التاريخية والحضارية الهامة، للمزيد انظر كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب، الجزء (٥، ١٢)، كما انظر محمد بن أحمد معبر، الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي، (الرياض مطابع الحميضي، ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٨ م) (جزءان) .

(١) ولفرد شيجر، ص ٩٥.

(٢) مثل بلاد خايط والمجاردة في تهامة بني شهر، وبلدتي بارق ومحاييل وما جاورهما، مع أن تهامة عسير تمتد من درب بني شعبة جنوباً إلى بلاد العرضيتين من منطقة القنفذة شمالاً. مشاهدات الباحث وتقلاته في هذه النواحي منذ أربعين عاماً.

(٣) يعرف هذا الفخذ باسم: غامد الزناد وتنتشر ديارهم في بطاط، والفرعة، ونصبة، والعطوة، ويبس وتمتد ديارهم من الغرب إلى بلاد زبيد في منطقة القنفذة، السلوك، ص ١٤، زرت هذه البلاد أكثر من مرة والتقيت مع بعض أعلامها، وتستحق أن يصدر عنها دراسة علمية مؤثرة.

(٤) وادي بطاط: يطلق على أعلى وادي الأحسبة، وهو مقر شيخ قبيلة غامد الزناد. ولفرد شيجر، ص ١١٤. حاشية رقم (١٢).

(٥) بلعريان: إحدى فروع خثعم التهامة في العرضية الشمالية من منطقة القنفذة، للمزيد عن بطون وعشائر العرضيتين (الجنوبية والشمالية) انظر: غيثان بن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب (عسير والقنفذة) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م). الجزء الثاني، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٢٢ وما بعده.

ورأينا هناك محاصيل ممتازة من الذرة، والسّمسم، تسقى من جدول يتدفق في الوادي، حيث يقوم سوق عمارة (الذي يعقد كل يوم ثلاثاء)^(١). وعمارة قبيلة جذابة، تشبه أعراب تهامة، يلبس أفرادها مآزر قصيرة من القماش، ويشد الواحد منهم جنبية على وسطه من الأمام. أما شعورهم الطويلة، فقد زينت بنباتات زكية الرائحة، اشترت من السوق لهذا الغرض. ويلبس معظم النساء وقليل من الرجال قبعات مصنوعة من الحصير، حيث تتميز قبعات الرجال بأن حوافها واسعة ومرتخية، أما قبعات النساء فهي قصيرة الحواف، ومتصلبة، وتيجانها مرتفعة^(٢).

وعندما اجتزنا الجدول، كان ثمة راع شاب، يشبه رمز الغابات أو الجمال عند الرومان؛ وقد ملأ بساتين النخيل بترديده لأنغام موسيقية شجية تنبعث من مزماره^(٣)، ثم دخلنا أرضاً مجدبة تتكون من الصخور النارية، والتلال الناتئة حيث توجد شجيرات متفرقة من السمر، ولو أنها عديمة الأوراق المزهرة. وتستمر هذه المنطقة المهجورة حتى وصلنا وادي خاط^(٤)، ثم أراضي قبيلة حميضة الزراعية في بارق^(٥). وهي تشبه قبيلة عمارة ويسكن أفرادها في بيوت مستوية الأسقف، بنيت من الحجارة بشكل جيد، وهذه القبائل المستقرة تملك قليلاً من الجمال وبعض الأبقار، وأحجامها جيدة من قطعان الضأن والماعز، لكنهم أساساً مزارعون يقومون بزراعة الدخن والذرة سواءً في سهول صغيرة تسقى عن طريق السيول، أو في بقع طينية في بطون الأودية. وإلى وراء من آل حميضة، توجد قبيلة آل جبلي وهم يسكنون على ضفتي وادي آل جبلي أحد روافد وادي حلي المهمة^(٦). وقد استطعنا أن نطوي هذا الوادي حتى نصل إلى وادي حلي الذي كنت

(١) للمزيد عن بطون وعشائر بلاد العرضيتين مثل عشيرة عمارة وغيرها، انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج٢، ص ٤٠٤ وما بعدها.

(٢) تسمى الواحدة من هذه القبعات مظلة، أو طفشة، وتصنع من أوراق شجر الدوم (الطفي)، ومن خوص النخيل. ولفرد شجير، ص ١١٤، حاشية (١٦).

(٣) المقصود ب (المزمار) محلياً أي الصفريقة، وهي تصنع من لحاء عروق الشجر آنذاك.

(٤) وادي خاط: أحد الأودية الرئيسية في تهامة بني شهر وبني عمرو. للمزيد انظر: غيثان بن جريس: بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٤٠١هـ / ٢٠١٩م) (١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م) (الطبعة الثانية)، ص ٣٥٤ وما بعدها. كما انظر الطبعة الرابعة (١٤٤٠هـ / ٢٠٢٠م).

(٥) بارق: كانت إحدى المراكز الحضارية التابعة لمحافظة المجاردة، تتكون من مجموعة من العشائر التي تسكن المنطقة البارقية وتحمل اسم بلاد بارق. مشاهدات الباحث وتنقلاته في بلاد بارق عام (١٤٢١هـ / ٢٠١٠م)، واليوم (١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م) هي محافظة مستقلة.

(٦) حلي: واد كبير ترفده كثير من الأودية الصغيرة، وينبع من جبال السروات ويصب في البحر. انظر: البلادي، بين مكة واليمن، ص ١٧٦ وما بعدها.

توافقاً لتتبع مجراه حتى الشاطئ، لكي أزور أعراب تهامة الممتعين^(١).

نحن الآن خارج المنطقة الزراعية، وبالتحديد في أرض البدو، وهذا الاصطلاح يستخدم هنا للدلالة على القبائل التي تعتمد أساساً على الرعي، وتسكن في المنطقة الوعرة الواقعة بين المرتفعات الجبلية، والسهل الساحلي. إنهم، وقبل كل شيء، رعاة قطعان الماعز، ولكنهم يملكون بعض الضأن والبقر وقليلاً من الجمال، ويقومون بزراعة بقع صغيرة على طول ضفتي الوادي، ويسكن هؤلاء البدو في بيوت صغيرة من الحصر تعرف باسم الخدور، ولا يستطيع المرء أن يرى، في غرب جبال الحجاز، الخيام السوداء "بيوت الشعر" المعروفة في وسط الجزيرة العربية. وأثاثهم الوحيد قليل من الأسرة المحبلة بجبال من الحصير. وهؤلاء البدو هم ربيعة الطحاحين، والمسافرة، وبنو هلال ومنجحة، وإلى الجنوب منهم فخوذ من بدو بني نمار، وشهران، وقحطان، وخولان، والريث^(٢). وقد كانت لهؤلاء في الماضي القريب جداً، سمعة سيئة كقطاع طرق، وأهل عنف، لكن تبدل هذا السلوك في الوقت الحاضر لهيبتهم من ابن سعود. ويلبس هؤلاء مآزر قصيرة من القماش مصبوغة باللون الأخضر، والأزرق، أو البني المشوب بحمرة. ويلبس النساء قبعات من القش قصيرة الحواف عالية التيجان^(٣).

ثم وصلنا إلى حلي على امتداد يعرف باسم حلوية، حيث يوجد، عبر منطقة صخرية مكشوفة، جدول صغير يتدفق في الوادي ويحف به نبات الحلفا، وأحراش السلم، والسمر وغيرها من الأشجار البرية مثل شجر الأراك، والمرخ، والمض ذي الزهر الأحمر، وشجرة العدن بزهورها المحببة إلى النفس، وجذوعها العارية القبيحة، ولبنها الذي تدره من أغصانها ليتحول إلى صمغ، ثم نبات الصبار الذي ينمو في التلال المكونة من الصخور النارية. ورأيت على طول مجرى الغيل الذي يعج ماؤه بصغار السمك، كثيراً من طيور البجع، وطائر أبي منجل اللماع، ولوحظ أيضاً طائر اللقلق [أبو مشط أو أبو مطرقة]، وطائر البلشون الأبيض، ومالك الحزين، وفي بعض الأحيان طائر الخطاف، والدجاج السوداني أو الغرغر، وطائر الدراج الذي يشبه الحجل، وطائر البوقير، وأكل النحل ذو اللون الأخضر، وطائر التمر ذو البريق المعدني، وطائر الصرد

(١) للمزيد عن وادي حلي، انظر: الزيلعي "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي"، ص ٧٩ وما بعدها.

(٢) للمزيد عن هذه البطون والعشائر، انظر: العقيلي، المخلاف، ج ١، ص ٧٩ وما بعدها. البلادي، بين مكة واليمن، ص ٢٢٢ - ٢٣٠، ٢٨٨، ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٣) للمزيد عن الألبسة والزينة في بلاد عسير وما جاورها انظر: ابن جريس، عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠ هـ، ص ٦٥ - ٧٣.

أو الدغناس، وطائر البابلر أو الأصفر العينين، وطائر البلبل، وطائر الوقواق، وأحياناً طائر النسر، وينساب وادي حلي عبر ممر حصن الطرفين الضيق إلى سهل ساحلي رملي، حيث توجد أول قرية في هذه المنطقة السبطة التي تسكنها قبيلة العُمور، وفيها سوق الأربعاء أحد أسواق وادي حلي^(١)

تحتوي تهامة على سهل ساحلي رملي يتراوح عرضه بين (١٢ - ٢٠) ميلاً، وهي تنقسم إلى تهامة الشام، وتمتد من البرك إلى الليث شمالاً، ثم تهامة عسير وتهامة اليمن . وتعرف المنطقة الجبلية التي تتوسط بين تهامة الشام وسفوح جبال السراة، ويتراوح ارتفاعها بين (٥٠٠ - ٤٥٠٠) قدم، باسم (العُرضية)^(٢) بينما يطلق على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أبها اسم (الحباطة) ويطلق على جميع هذه السلسلة الجبلية بما في ذلك عسير التي يزيد ارتفاعها عن (٩٠٠٠) قدم، اسم " الحجاز " ويستخدم هنا بشكل شامل اصطلاح الشام الذي يطلق على الشمال، واليمن على الجنوب، والجبل على الشرق، والبحري على الغرب . ويعرف سكان تهامة باسم التهاميين، ويتمركزون في الأودية التي تستمد سيولها من الجبال . وهم بصفة عامة مستقرون، ولا يوزع الرجل منهم أرضه خارج عشيرته، ولا يبيعها إذا كان له أبناء كبار دون أخذ موافقتهم . ويرث الأبناء حصصاً متساوية، والبنات نصف حصة الرجل، والأودية الرئيسية الواقعة في الشمال [تهامة الشام] هي الليث، ودوقة، والأحسبة، وقتونا، ويبة، وحلي^(٣) . وفي جميع الاعتبار فإن وادي حلي، بروافده الواسعة الممتدة من شري في الشمال إلى تيه في الجنوب، يعد من أعظمها أهمية، ولا يتفوق عليه إلا وادي بيش الذي يعتبر مع وادي عتود وضمد الصغيرين من الأودية الرئيسية في تهامة . وينتسب التهاميون بصورة عامة إلى أوديتهم، وهكذا، فإن سكان حلي يسمون (الحلاونة)، وأهل يبة (اليبانة) .

يستوطن هذه الأودية كثير من القبائل المختلفة ففي وادي حلي أربع قبائل كبرى هم: العلاونة، والصحب، وكنانة، والعمور . ومن القبائل في وادي يبة بنو يعلى، والنواشرة، وبلعير، والشواردة والمقاعدة والقحمان، وتسكن في الأحسبة قبيلة الأشرف العبادلة . ولا يجمع هذه القبائل أصل مشترك، ولكنهم عند إعلان الحرب يتحدون

(١) للمزيد من التفاصيل عن بلاد حلي، انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج ٢، ص ٣٨٨-٣٩٣، كما انظر الطبعة الثانية من الكتاب نفسه (١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م) .

(٢) وجبال العرضيتين أقل ارتفاعاً من جبال السروات الرئيسية .

(٣) هذه الأودية الرئيسية في بلاد القنفذة . ما عدا وادي الليث .

تحت راية واحدة ... وعندما لا يسيل أحد الأودية فإن سكانه يهاجرون إلى أي مكان آخر في تهامة، حيث يستقبلون بالترحاب، ويساعدون في الحصاد، ثم يعودون بعد ذلك إلى أوطانهم، ومعهم أحمال من الحبوب. وعلى العكس عندما يصب الخير في ديارهم في بعض السنوات الأخرى، فإنهم يستقبلون مضيفيهم السابقين. وهذا النظام يشمل الإقليم الممتد من جازان إلى الليث، وقد صادفت أسراً من أهالي المنطقة المحيطة بمدينة صبيا في طريقهم إلى القنفذة^(١). وتعاني الأودية الصغرى كثيراً من سنوات الجفاف العديدة، إلا أن وادي حلي ووادي بيش يستطيعان الاعتماد على السيول سنوياً، ففي السنة الماضية انفجر العُقم الرئيسي في وادي حلي، وتبعاً لذلك، أصبح الوادي الذي في أعلى البويضين مهجوراً فقد انتقل ساكنوه إلى وادي بية. وتأتي السيول في أي شهر خلال السنة. ولكن فصلي الخريف والشتاء أكثرها اعتياداً، حيث تحجز وتوزع على مساحات كبيرة بواسطة عدد من السدود الترابية تعرف باسم "زبير" وهي تحتاج إلى انتباه منتظم؛ لأن السيول التي لا يستطيع السيطرة عليها، ربما يلحق فيضانها أذى بالمحاصيل اليابقة.

والمحصولان الرئيسيان في تهامة هما: الذرة التي تنمو في الأراضي الطينية الرسوبية، وتنتج من بذرة واحدة من ثلاث إلى خمس حصصات^(٢). والدخن الذي يبذر بصورة عامة على المطر، وينمو في الخبت أو الأراضي الرملية بين الأودية. وتحصد الذرة بعد ثلاثة أشهر من بداية زراعتها، ثم بعد ذلك كل شهرين، بينما يصرم الدخن مرة واحدة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ غرسه. ويعتبر قصب الذرة، وليس الدخن، علفاً جيداً حتى ولو كان يابساً، والمحاصيل التي يكتمل نموها في شهري يولييه وأغسطس تستخدم فقط لهذا الغرض، لأن الرياح الحارة التي تهب في ذلك الفصل تساعد على تجفيف الحبوب، ويزرع السمسم في أطراف الأراضي السيلية، حيث تزرع أيضاً مقادير صغيرة من القطن والفاصوليا. وليس لدى أهل تهامة دورة زراعية للمحصولات، فهم يبذرون كلما وجد السيل. وتوجد حول بعض الآبار بساتين صغيرة تستنبت فيها

(١) كانت ظاهرة التعاون والتكاتف والاجتماعي قوية ونشيطة بين الناس قديماً، واليوم ضعفت مثل هذه الظاهرة، وتراجعت قيم الناس ومبادئهم في هذا الجانب. انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج ٢، ص ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: للمزيد من الإيضاح عن الزراعة في عسير وجازان وما جاورها، انظر: ابن جريس، عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠ هـ، ص ١٢٩ وما بعدها. وتاريخ الزراعة في بلاد تهامة خلال القرنين (١٢ - ١٤ هـ / ١٩ - ٢٠ م) من الموضوعات الجديدة التي لم تخدم بحثياً.

الطماطم، والباذنجان، والبامية، والدباء، والحبّوب والخربز، والنباتات ذات الروائح الزكية^(١). ولا ينمو هنا البصل والثوم، والفلّفل الأحمر، فهذه المحاصيل مع محاصيل أخرى هي الليمون، والعنب، والمشمش، والخوخ، والرمّان، والموز، والبطاطس، والبرّك، والشار، تجلب إلى أسواق تهامة من جبال الحجاز، والتمر قليل، وينمو معظمه في أعلى وادي بية، وعلى طول الساحل بين عمق والقحمة. وجملة التمر المستهلكة هنا تصل عن طريق البحر، أو من واحة وادي بيشة، أما شجر الدوم الذي تصدر أوراقه، وأيضاً تباع في هذه الأسواق، ويصنع منها الحصر، والزنايل، والسلال، والحبال، فإنه ينمو فقط في أودية تهامة عسير^(٢).

لا يملك التهاميون إلا قليلاً من الجمال، ومعظمها تمتلكها القبائل الساكنة إلى الشمال من القنفذة، وهم يستخدمون البقر في حرث الأرض وإقامة العُقم، أو السدود الترايبية، وقد علمت أن رجلاً غنياً يمتلك من ثلاثين إلى أربعين رأساً من البقر، لذا فمن الواضح، أنهم يمتلكون أكثر مما رأيت. وتوجد أحجام طيبة من قطعان الماعز، وبعض الضأن التي تودع بصورة عامة عند جيرانهم البدو لحفظها. وتربية الدجاج شائعة حول القرى، والحمير دواب ركوبهم المفضلة، وهم يسافرون عليها مسافات طويلة في وقت قصير يبعث على الدهشة، ويستخدمونها أيضاً في جلب الماء من الآبار في جرار كبيرة تعلق في شباك من الحبال على جانبي الحمّار. والخطب شحيح على الرغم من وجود بقع من شجر الأراك، والأثل في الأودية، ويحافظون على أشجار السدر الكبيرة في الحقول لفاكهتهم^(٣). ويسكن هؤلاء الأعراب في عشش مستديرة الشكل، جيدة التركيب، تبنى في العادة على هيئة كتلة واحدة، على هيكل من الأغصان بدون عمود خشبي، وتكلس من الداخل بالطين، ومن الخارج تغطى بنبات الحلفا والمرخ الذي يحكم رباطه بحبال رفيعة. وتتكون المنازل في القرى من مجموعات، بينما يحاط بعضها بأفنية عالية مبنية من الأخشاب الرفيعة، ويحاط البعض الآخر بزريرة من مراميد من شجر الأثل. وقد جرت العادة أن تترجل عن الجمل، وتمشي على رجليك عندما تمر عبر هذه القرى^(٤).

(١) المصدر نفسه. للمزيد انظر: ولفرد شيجر، ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه. للمزيد انظر: ولفرد شيجر، ص ٩٩ وما بعدها.

(٣) ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ١٢٦، ١٢٩، أشار هذا الرحلة إلى موضوعات اقتصادية، مهمة عن تاريخ النبات والثروة الحيوانية وغيرها، وهذه محاور علمية مهمة تستحق الاهتمام والرعاية البحثية.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥، ٣٧.

أواني الطبخ، والماء، وفناجين القهوة، مصنوعة محلياً، وبصورة عامة من الفخار الأحمر، وأقداح الشرب مصنوعة من الخشب. أما أطباق الطعام والسلال فهي من ورق الدوم [الطفي]، وأواني الزبدة من لحاء الدباء، وهذه تعلق على جدران المنازل في معاليق جلدية^(١). وتستخدم الأسيرة المصنوعة من الخشب والحبال، للنوم والجلوس معاً، لأن أرضية المنازل تغص بالكرش [القراد الصغير] ولو أن حشرات البق والبراغيث لا وجود لها في هذه القرى.

القهوة بالزنجبيل هي الشراب العام، والفنجان يملأ دائماً، ويعطى الضيف فنجانين دفعة واحدة^(٢). والغذاء الرئيسي هو خبز أو ثريد الذرة، وفي حالة عدم وجوده أو انعدامه فإن الدخن يؤكل عريكة بسمن الزبدة النقي. ويؤكل السمك المجفف والتمر بصورة عامة، لكن اللحم وجبة ترفيحية، والحليب شحيح^(٣).

ويلبس الرجال بصورة دائمة مآزر من القماش مع خنجر أو جنبية مشدودة في الوسط من الأمام، ويلبس جميع الذكور حتى الأطفال أحزمة من الجلد تحيط بالخصر^(٤). وفي إحدى المرات كان أحد الأطفال يأكل معنا، وقد نسي أن يلبس حزامه بعد الاستحمام، وحالما لاحظ عدم وجوده على بطنه. رفض أن ينهي وجبته وهرع لأخذه، وتلبس في الاحتفالات، بصورة خاصة، صديرية قصيرة، زاهية الألوان، ضيقه الأكمام، ويمتلك الأطفال، والشباب شعوراً طويلة تفرق في الوسط، وتمرخ على طول المفرق بمعجون اللباب الأبيض المسحوق. ويلف الشعر بشريط جلدي رفيع، مزخرف في بعض الأحيان بالفضة، في حين تلبس بصورة دائمة عصابة من البرك، أو حزمة من النباتات الزكية الرائحة تفرز في الشلاف^(٥). إنهم شعب نحيل البنية، وملونون، وشعورهم سوداء مموجة، بجانب ما يظهر عليهم من صفات المرح، والسعادة، والانطلاق، كما أنهم يعرفون بضحكهم، ووداعتهم، وعدم جديتهم، وكذلك بتصرفاتهم العفوية، وقد

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥ وما بعدها. ذكر هذا الرحلة جزئيات عديدة تستحق دراسات مطولة وموثقة.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨ - ٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٥ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٥ وما بعدها، تاريخ اللباس والزينة في بلاد تهامة خلال القرون الماضية المتأخرة من الموضوعات الجديدة والمهمة حبذا أن يدرس هذا الموضوع في عدد من البحوث العلمية.

(٥) المصدر نفسه، الشلاف: تعرف أيضاً بـ (المشقة) وهي نباتات عطرية تفرز مع عصابة مصنوعة من الريحان والأشجار الزكية. للمزيد انظر كتاب: عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠ هـ، وكتاب القول المكتوب في تاريخ الجنوب (١٤٤٢ هـ / ٢٠٢١ م) (الجزء الثالث والعشرون).

لاحظت عدداً من حالات التراخوما، وقليلاً من قرحة المناطق الحارة، وحالة واحدة تقريباً مؤكدة من حالات الزائدة الدودية، ويوجد هنا مرض الدودة الغينية^(١). وقد رأيت فيها بعد حالات متعددة حول صبيا .

وصلت إلى البيضين، قرية المشايخ، لأجد الأهالي وجيرانهم يحتفلون بالختان . وهذا الاحتفال ذو أهمية عظيمة بين هؤلاء القبائل . وهو مناسبة للرقص الذي يستمر من أسبوعين إلى شهر . وتتم عملية الختان لفتيان بين سن السادسة عشرة والخامسة والعشرين . وقد ختن في هذه المناسبة أربعة أولاد فقط رغم أن عدد المختونين يصل في بعض الأحيان من ٨ - ١٠ أشخاص . إنهم يرتدون ثياباً مميزة تتكون من سروال ذي طرفين مشغولين بخيوط حمراء تحيطان بأسفل الساقين تحت تنورة كاملة البياض مشدودة بحزام على الوسط، ومعاطف حمراء براقة [صديرية]^(٢) .

يتجمع الجمهور كل عصرية وفي المساء، والثلاثة يرقصون بينهم، والموسيقيون زنوج، وأدواتهم الموسيقية هي: الزلفة، وهي طبل واسع يضرب باليدين، واثنان من الأزيار [مفرد زير] يدقان بواسطة المضاريب، ومارتان تدعى الواحدة منهما صفريقة.

تدار بواسطة الزلفة حركات الركض المعقدة التي تخضع لطابع معين، ويرقص الثلاثة^(٣) جماعة وفرادى، وهم يجثمون ويجنجلون [يهكمون ويقفزون] بينما يحملون في أياديهم خناجر مسلولة، يحركونها أمام أجسامهم، وقد انضم إليهم طفلان صغيران ليتعلما الرقص، وبقيّة الأطفال يتدربون خارج الحشد، بينما يوجد خلفهم الجيش أو الفرسان في صف واحد، وهم يهزون أنفسهم على وقع الطبول، ويحملون في أيديهم سيوفهم المسلولة والمشرعة إلى أعلى، وتراهم في ضوء القمر متوجين بالزهور، ونصف عارين^(٤) .

وقبل إجراء عملية الختان بيومين، انطلق الأولاد راكبين جملين، وبصحبتهم أصدقاءهم، وتتقدمهم راية، ليدوروا حول القرى المحيطة بهم، حيث يحتفى بهم فيها، ويرقصون في كل منها .

(١) ابن جريس، أنها حاضرة عسير، ص ٣٩٢ وما بعدها . تاريخ الطب والتطبيب في تهامة والسراة خلال القرون الماضية المتأخرة الماضية موضوع لم يوثق علمياً حبذا أن يدرس في كتاب علمي .

(٢) ابن جريس، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص ٨٥-٨٧ .

(٣) الثلاثة : الراقصون ومن يقوم باداء الفن الشعبي أمام الجمهور .

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٥، ١٠٨ وما بعدها .

ويوم الختان يتجمع حشد كبير من المتفرجين، وبعد ظهر هذا اليوم بوقت متأخر، يرقص الأولاد، ثم ينسحبون إلى عشة معدة لتغيير ملابسهم، حيث يلبس الواحد منهم إزاراً من القماش، ويصعدون على أكتاف العبيد ثم ينزل هؤلاء الثلاثة، ويمشون بثبات أمام الجماهير ويقفون وأيديهم مشدودة إلى صدورهم، وعندئذ يتم تنفيذ عملية الختان بواسطة اثنين من العبيد. ثم يصعد الثلاثة مرة أخرى على ظهور العبيد الذين يأخذونهم إلى الفرقة الموسيقية، ويدورون بهم بين الجماهير، وهم يؤدون بأذرعهم، وأكتافهم حركات راقصة. وقد عرض أحد هؤلاء الثلاثة عن الركب، وقدم عرضاً طويلاً ومدشاً من الرقص، ولم يظهر على أحدهم أي شيء من علامات الألم. وبالرغم من أن هذه العملية قد خففت في هذه الأيام بناءً على أوامر الملك [عبد العزيز] وأجرى عليها تعديل بمنع السلخ الذي كان سائداً في الماضي القريب، إلا أنها تجري بطريقة شاذة ومؤلمة^(١).

غادرنا حلي من كباد، وهي سوق كبيرة تعقد يوم الأحد، وتستخدم من قبل البدو المحيطين بها، وسرنا محاذين لقوس [حافة] وادي حلي عبر أراضي بني هلال. وهذه القبيلة تسكن حالياً في منطقة بركانية تمتد بين محاليل، والبرك، والقحمة^(٢). وتتسبب الرواية المحلية بطولات أبي زيد الهلالي إلى منطقة وادي حلي، ويذكر أن قبر ابنه عبد العزيز هناك. وكان قطع الطريق، والقتل المتعمد، حتى وقت قريب، علامة مميزة لبني هلال، ويعتبرون حتى اليوم مبعث خوف المسافرين الذين يسلكون هذا الطريق. إنهم قليلو العدد ويعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانية^(٣). وقد حدث في الماضي كثير من الثورات، من جبل الشريف الذي تقع بالقرب منه نواة بركانية كانت في حالة نشطة جداً، وحقل الحرة الذي يبدو بوضوح أنه خمد منذ زمن طويل. وهي تمتد نزولاً من هنا حتى البحر فيما بين عمق والرقبة، الواقعة إلى الجنوب من القحمة، بما في ذلك حبش الشيخ المشهور بالقرب من البرك، ثم اجتزنا وادي حلي مرة أخرى بالقرب من

(١) للمزيد عن عادة الختان في بلاد عسير، انظر: محمود شاكر، عسير (دمشق، ١٣٩٦ هـ)، ص ٨٥، محمد عمر رفيع، في ربوع عسير (القاهرة، ١٣٧٣ هـ) ص ٨٤، فؤاد حمزة، في بلاد عسير، ١٠٩-١١١، غيثان بن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠ هـ)، وموسوعة (القول المكتوب في تاريخ الجنوب) (الجزء الثالث والعشرون) (القسم الثالث).

(٢) للمزيد عن بلاد البرك انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب، وانظر: كتابنا: القول المكتوب، ج ٢، ص ٤٠٢. (طبعان).

(٣) هذه البلدان وغيرها في أنحاء البلاد السعودية أصبحت اليوم بلاداً آمنة مطمئنة، وذلك بفضل الله عز وجل ثم بفضل حكومة المملكة العربية السعودية التي نشرت الأمن والأمان في ربوع البلاد قلله الحمد والمنة.

محاليل، وهي قرية تتبع مدينة أبها إدارياً، وبها سوق السبت الهام، وتقع على ارتفاع (١٦٩٠) قدم فوق سطح البحر، وهي مثل جميع قرى العرضية، منازلها مبنية من الأحجار، ومن طبقة واحدة، وتتمو على سطوحها المستوية، في أوان خاصة، النباتات الزكية الرائحة".

١٥. عبد الله بن علي العمودي (ق ١٤ هـ / ٢٠ م) : ^(١)

العمودي من أعيان أبي عريش . بمنطقة جازان، كان قد أعد بحثاً بعنوان : الرحلة الملكية السعودية إلى المنطقة الجنوبية^(٢)، رصد فيه لمحات من زيارة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود (١٢٧٣-١٢٨٤هـ / ١٣٥٣-١٣٨٤هـ) إلى منطقة ساحل البحر الأحمر من جدة إلى جازان عام (١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م)، ثم أرسل هذه الدراسة إلى معتمد وزارة المعارف في جازان، بهدف الاطلاع عليها ونشرها، فكتب عليها الأخير خطاباً وأرسلها إلى الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، رئيس وصاحب مجلة المنهل لنشرها في مجلته، فلم يكن على الأخير إلا الترحيب ونشرها في المجلد (١٧) عام (١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م)^(٣).

وفي هذه الدراسة معلومات عن بلدة القنفذة وكيف استقبل أهلها الملك سعود بكل حفاوة وترحيب^(٤). ثم يشير إلى بعض النواحي الاجتماعية في القنفذة فيقول : " والقنفذة بلد قديم يقع على سيف البحر الأحمر، وبه مساكن مبنية بالحجر، وثكنة للدولة تقع خارج البلدة ... "^(٥).

ويذكر سفر الملك بحراً من القنفذة إلى البرك، ونزوله فيها، وفرح الأهالي بقدومه، وكان في مقدمتهم شيوخها وأعيانها، ثم يضيف بأن " أغلب أهل برك الغماد بادية، وكان على برك الغماد سور عظيم لا تزال آثاره باقية إلى الآن، كان بناء الملك الأشرف، صاحب

(١) عبد الله بن علي باسندي العمودي من مواليد مدينة أبي عريش في عام (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م)، رحل إلى اليمن لطلب العلم، وبقي بها عدة سنوات، ثم عاد إلى مسقط رأسه في أبي عريش وتولى القضاء في بعض قرى جازان لسنوات عديدة في عهدي الإدريسي والملك عبد العزيز . له العديد من المؤلفات في التاريخ وبعض العلوم الشرعية الأخرى، ومعظمها لا زال مخطوطاً . وقد عُمر حوالي مئة سنة، وتوفي عام (١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م) .

(٢) بحث منشور في مجلة المنهل (١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م)، مج (١٧) السنة (٢٠) الجزء التاسع، ص ٦١٢-٦٠٩ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) العمودي، المصدر نفسه، ص ٦١٠ .

اليمن^(١)، وفي برك الغماد من النخيل ما يثمر كل عام، وأهله من بني هلال^(٢).

١٦. عاتق بن غيث البلادي (ق ١٤ - ١٥ هـ / ٢٠ م) :

البلادي : أحد الرحالة ومؤرخي العصر الحديث في المملكة العربية السعودية، وله العديد من المؤلفات المنشورة في الأنساب، والمعاجم الجغرافية، والرحلات، وبعض الكتب التاريخية والأدبية^(٣).

وكتابه : بين مكة واليمن (رحلات ومشاهدات)^(٤)، والذي يهمننا في هذه الدراسة، قيامه برحلة ميدانية في شهر صفر (١٤٠٣ هـ / نوفمبر ١٩٨٢ م) بدأها بمكة المكرمة على طريق الساحل ماراً ببلدة القنفذة حتى وصل إلى جازان، ثم عاد أدراجه إلى درب بني شعبة ثم محاليل عسير فبلاد المخواة حتى التقى ببلدة المظيلف التي دخل منها إلى مدينة القنفذة في بداية رحلته^(٥). وفي زمن آخر قام في (١٨ ربيع الآخر ١٤٠٣ هـ / فبراير ١٩٨٣ م) قام برحلة أخرى من مكة إلى بلاد العرضيتين (الجنوبية والشمالية) التابعةين لإمارة القنفذة^(٦).

(١) الملك الأشرف : هو السلطان الملك الأشرف أبو العباس إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي الرسولي، ولد سنة (٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م)، وحكم الدولة الرسولية في اليمن ما يقارب خمسا وعشرين سنة (٧٧٨ - ٨٠٣ هـ / ١٣٧٦ - ١٤٠٠ م). انظر: با مخزومة، تاريخ ثغر عدن (بيروت : منشورات المدينة، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م)، ص ٢٠.

(٢) العمودي، المصدر نفسه، ص ٦١٠. هذه الدراسة لا تشتمل على تفصيلات دقيقة عن قدوم الملك سعود لبلاد القنفذة، وما وزع على أهلها من الهدايا والأعطيات.

(٣) قضى البلادي حياته في الدراسة والبحث والترحال، ودار مكة للطباعة والنشر في مكة المكرمة قامت على طباعة ونشر أغلب مؤلفاته، وانتقل إلى رحمة ربه (بإذن الله تعالى) في عام (١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م).

(٤) طبع هذا الكتاب لأول مرة بدار مكة للطباعة والنشر، عام (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) ويقع في (٤١٩) صفحة.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٦. ٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٢٧ - ٣٥٧. للمزيد عن العرضيتين انظر : ابن جريس، القول المكتوب في تاريخ الجنوب، ج ٢، ص ٣٨٧ - ٤٣٢. (طبعتان).

(*) وبعد الاطلاع على ما شاهدته هذا الرحالة في بلاد القنفذة، نجده يركز على عدة أمور نجمالها في النقاط التالية :

١. أورد أسماء العديد من الأعلام والشيوخ الذين التقى بهم في منطقة القنفذة في أوائل هذا القرن (١٥ هـ / ٢٠ م)، لكنه لم يذكر تفصيلات كثيرة عن دورهم التاريخي ومراكزهم الاجتماعية في بلادهم، وإن كان أشار إلى بعضهم بشكل موجز^(١).
٢. فصل الحديث عن بعض القرى والأودية والجبال والهضاب، من حيث مواقعها، وطبيعتها، وأشكالها، بل ذكر ما ورد عن البعض منها في كتب التراث الإسلامي القديم، مثل : بلدان، دوقة، والأحسية، وقتونا، وبيبة، وحلي، والبرك وغيرها^(٢).
٣. أشار إلى بعض الأحداث السياسية والمعارك الحربية التي وقعت في ديار القنفذة بين جيوش الإدريسي والشريف الحسين بن علي، عام (١٢٢٩ هـ / ١٩١١ م)، ومعظم المادة المدونة في كتاب البلادي مستقاة من كتابي : الرحلة اليمانية، للشريف البركاتي، ومذكراتي، للشريف عبد الله بن الحسين^(٣).
٤. أدرج بحثاً تاريخياً موجزاً لتاريخ القنفذة من القرن (١٠ هـ / ١٦ م) حتى عصرنا الحالي، وكان هذا البحث من إعداد أحد الأعيان الرئيسيين في القنفذة، بل يعد المؤرخ الأول لتلك الناحية في عصرنا الحديث، إنه الأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه^(٤).
٥. فصل الحديث إلى حد ما عن أسماء معظم البطون والعشائر والأفخاذ وبعض أسر المشيخات في منطقة القنفذة أثناء زيارته لها، والمتأمل في واقع البلاد وما ذكره هذا الرحالة يجد عنده بعض الأخطاء العلمية فيما ذكر من أسماء ومواقع بعض البطون والعشائر، وربما السبب يعود إلى حصوله على مادته العلمية من

(١) انظر : البلادي، المصدر السابق، ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٧ وما بعدها . للمزيد من التفصيلات عن هذه المواقع انظر : القسم الثاني من هذا الكتاب

(٣) البلادي، المصدر السابق، ص ١٥٢ وما بعدها . للمزيد من التفصيلات عن هذين الكتابين انظر ذكرهما في صفحات سابقة من هذا القسم .

(٤) البلادي، المصدر السابق، ص ١١٧ - ١٢٨ . للمزيد عن ما دونه حسن الفقيه عن بلاد القنفذة، وعن الدور الذي أسدها لديارها ومسقط رأسه . انظر : ابن جريس، القول المكتوب، ج ٢، ٣٢١ - ٣٥٨ . (طبعتان) .

رواة غير متأكدين من صحة رواياتهم، وكان الأجدر به أن يتثبت من مصداقية كل ما وصل إليه من مادة أو رواية^(١).

٦. أشار في رحلته إلى زيارته ووقوفه على بعض المواقع الأثرية في بلاد القنفذة مثل مدينتي حلي بن يعقوب، وعشم^(٢). كما وصف مدينة القنفذة عند زيارته لها، أثناء ذهابه من مكة إلى جازان، فقال: "إنها مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر الشرقي، على قرابة (٣٤٣) كيلاً، ذات أسواق ومباني من طبقتين وثلاث، وبها جميع مرافق الدولة، وبها إدارة تعليم وتتبعها مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية، وإدارة تعليم للبنات أيضاً، وبها إمارة تابعة لإمارة مكة تصل حدودها جنوباً إلى ما بين وادي حلي ووادي عمق، وتتبعها تسع إمارات من الدرجة الثالثة.." ^(٣).

٧. إذا كان كتاب البلادي قد جمع معلومات تاريخية كثيرة ومتناثرة، إلا أنه مازال يفتقر إلى إيراد تفصيلات عن بعض الجوانب الحضارية لمنطقة القنفذة، مثل: النشاطات الاقتصادية، والاجتماعية، والتعليمية والثقافية والفكرية.

١٧. يحيى إبراهيم الألمي (ق ١٤ - ١٥هـ / ٢٠م) :

يحيى الألمي : أحد رجال منطقة عسير المثقفين والمتعلمين، عاش فترة النصف الثاني من القرن (١٤هـ / ٢٠م)، ومازال على قيد الحياة حتى يومنا هذا (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، عمل في العديد من الأعمال الحكومية، وقام بتأليف كتابه الموسوم بـ: رحلات في عسير (نصوص، وانطباعات، ووصف، ومشاهدات) ^(٤). وهذا الكتاب جولات قصيرة في

(١) البلادي، المصدر السابق، ص ٥٣ وما بعدها، انظر أيضاً، ابن جريس، القول المكتوب، ج ٢، ص ٣٨٧ - ٤٠٢. (طبعان).

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٤، ١٧٦. وللمزيد من التوضيحات التاريخية القديمة عن بلدي عشم وحلي انظر: أحمد الزيلعي، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ق ٩٩٠هـ / ١٥٠٩م)" ص ١١ وما بعدها، حسن إبراهيم الفقيه، مخلاف عشم (مطابع الفرزدق بالرياض، ١٤١٣هـ) ص ٢٦ وما بعدها، انظر: أيضاً القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٣) البلادي، المصدر السابق، ص ١١٢. تدوين هذه المعلومات يعود إلى عام (١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م)، مع أنه جرى العديد من التعديلات على نظام الإمارات والمناطق، وأصبحت القنفذة من المحافظات الرئيسية التابعة لمكة، وما يتبعها من قطاعات إدارية مباشرة يسمى مركزاً وليس إمارة. مازالت بلاد القنفذة تحتاج إلى خدمة بحثية أعمق وأطول، حبذا أن نرى باحثاً جاداً يقوم بذلك.

(٤) أشار إلى هذا الكتاب بأنه (الجزء الأول)، ولا يوجد عليه معلومات النشر، مثل: مكان النشر، واسم الناشر وتاريخه.

نواح عديدة من منطقتي عسير ونجران، دون خلالها بعض مشاهداته وانطباعاته^(١)، كما ضمن كتابه بعض المقالات عن أجزاء من بلاد عسير من تأليف بعض معاصريه مثل : حمد الجاسر، وعلي علوان الأملعي، وتركبي الماضي، وسعيد الغماز، وعبد الله بن حميد، وأحمد مطاعن وغيرهم^(٢).

لا يوجد في كتاب الأملعي كثير معلومات عن ديار القنفذة، اللهم إلا ما أشار إليه عن تهامة بقرن، أثناء حديثه عن البلاد القرنية^(٣)، فذكر حدود أطرافها التهامية، وأشار إلى بعض قراها الرئيسية مثل : ثريان، ونخال، والجوف، وقرية الحصنة . كما ذكر سوقها الرئيسي في ثريان، وما يباع فيه ويشتري من السلع^(٤) . ولم يذكر تبعية هذه الناحية الإدارية، إلا أنها من أجزاء العرضية الجنوبية التابعة لمحافظة القنفذة (إمارة القنفذة سابقا) ، والواقعة عند سفوح سروات شمران وعليان وبلقرن الغربية^(٥) . وأشار في شروحاته إلى انزال هذه الناحية، وعدم معرفة معظم الناس بها^(٦) .

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦، ٢٠، ٢٧، ٤٠، ١٦٧ . وعبد الله بن حميد، وعلي علوان، وسعيد الغماز، وأحمد مطاعن من رموز الحياة الثقافية والفكرية في جنوبي البلاد السعودية، خلال العصر الحديث، أرجو من الله عز وجل أن يوفقنا إلى جمع ودراسة إسهامات ونشاطات رموز بلاد عسير الثقافية والفكرية في القرن (١٤هـ/ ٢٠م) .

(٣) الأملعي، المصدر نفسه، ص ١٦٩ .

(٤) المصدر نفسه . للمزيد عن بلاد بقرن التهامية التابعة للقنفذة، انظر: ابن جريس، القول المكتوب، ج ٢، ص ٤٠٣ - ٤٣٤ . (طبعتان) .

(٥) المصدران نفسهما .

(٦) بلاد العرضيتين منعزلة عند سفوح سروات شمران وختعم وبلقرن الغربية، وبلاد العروض الممتدة من جازان إلى مكة، أي منحدرات السروات الغربية، كانت تعيش خلال القرون الماضية في عزلة شديدة لصعوبة تضاريسها وشدة بأس أهلها، وفي العقود الماضية المتأخرة امتدت إليها يد التنمية والتطوير، ومن ثم أصبحت اليوم تعيش أزهى عصورها من التقدم الحضاري والتموي.

ثالثاً : وقفة تأمل وتحليل للرحالة ومدوناتهم :

(*) من خلال استعراض السبعة عشر رحالة السابقين وما ذكروه في مدوناتهم عن بلاد القنفذة بشكل عام، ومدينة القنفذة بشكل خاص، اتضح لنا عدة أمور نذكرها في النقاط الآتية :

١ - تنوع ثقافتهم :

عند إجراء دراسة على بيانات هؤلاء الرحالة، نجد منهم اثني عشر من أرومة عربية وإسلامية، ومن هؤلاء الاثنى عشر اثنان من خارج الجزيرة العربية، هما : ناصر خسرو من بلاد فارس، وابن بطوطة من ديار المغرب العربي، أما العشرة الباقون فهم من داخل الجزيرة العربية، وتحديدًا من الحجاز واليمن وما بينهما . وأما الخمسة الباقون فهم من جنس أجنبي غربي، أربعة من الجنسية الإنجليزية البريطانية والخامس من البلاد الأمريكية . ومن خلال تنوع أوطانهم الرئيسية يظهر لنا أمر آخر وهو تنوع مشاربهم وثقافتهم وأحيانًا مذاهبهم . فالعرب والمسلمون منهم يدينون بدين الإسلام، وأغلبهم على مذهب أهل السنة، أما الأمريكي والأربعة الإنجليز الآخرون فكانوا على دين النصرانية، ما عدا فلبلي الذي دخل الإسلام مؤخرًا^(١) .

أما ثقافات هؤلاء الرحالة فكانت هي الأخرى متنوعة ومختلفة من شخص إلى آخر . فمنهم السلاطين العظام والعلماء الكبار الذين أثروا المكتبة العربية والإسلامية بإنتاجهم الفكري الجيد أمثال : ناصر خسرو، وابن بطوطة، والسلطان الملك المجاهد الرسولي، ومؤلف رحلة هذا السلطان الملك الأشرف (الثاني) الرسولي^(٢) . ويحيى بن المطهر، ومحسن بن عبد الكريم، وإسماعيل جفمان، وفلبلي، وعاتق البلادي . فهؤلاء لهم من النتاج العلمي الشيء الكثير، ولم تكن الرحلة لبعضهم إلا مساهمة بسيطة مما دونوا من علوم في مجالات شيء . وكذلك الباقون من الرحالة الآخرين كانوا

(١) بعد اتصال فلبلي بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وإقامته في الجزيرة العربية سنوات عديدة اعتنق الإسلام، ومكث في الجزيرة العربية حوالي (٤٠) سنة، دون خلالها عشرات الكتب والدراسات .

(٢) كان الكثير من سلاطين وأمراء الدولة الرسولية في اليمن من العلماء والمؤرخين والأدباء ويوجد في المكتبات العربية والإسلامية الكثير من نتاج أولئك السلاطين العلماء . للمزيد انظر: عبد الرحمن عبد الله الأحمرري. تدوين التاريخ المحلي لليمن خلال القرن الثامن الهجري . رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م)، ص ٣٦ وما بعدها . (وطبعت مؤخرًا في كتاب) .

على قدر جيد من المعرفة والثقافة جعلتهم يسهمون في علم الرحلات ببعض ما قدموا لنا من إسهامات علمية وثقافية وفكرية . والبعض من هؤلاء الرحالة لم يكن هدفه تدوين رحلاته حتى تكون علماً متداولاً بين أيدي الناس، وإنما جاء منطقة دراستنا وما جاورها لإنجاز مهمة معينة، مثل : جمع معلومات استخباراتية كما فعل السير كيناهان كورنواليس^(١)، أو دراسة بعض الظواهر السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية وغيرها أمثال : فلبلي، وتوتيشل، وولفرد شيجر^(٢).

٢- المصادر والمنهج المستخدم في جمع مادة المدونات :

اعتمدوا جميعهم على السفر والترحال، ما عدا بدول الذي جمع مادته من السجلات والتقارير البريطانية التي تحدثت عن جنوبي الجزيرة العربية وبخاصة جازان وعسير وما جاورهما . ومعظم رحالتنا جاؤوا إلى بلاد القنفذة، واعتمدوا على المشاهدات وأحياناً على الرواية الشفوية، وإجراء المقابلات مع بعض أهالي المنطقة. وجلهم كانوا يلتقون فقط بسكان الساحل من منطقة القنفذة^(٣). وأحياناً بأهالي موانئ البرك أو حلي أو القنفذة لمن يسافر عن طريق البحر، وهذا ما حدث مع كل من ابن بطوطة ويحيى بن المطهر^(٤). وبعض رحالتنا كانوا يتولون نفقات سفرهم، وأحياناً ينزلون ضيوفاً على أهل البلاد فيقومون لهم بحق الضيافة، ومن ثم يسجلون ما رأوه وشاهدوه عن أهل البلاد^(٥). وآخرون كانوا في معية رفاق سفر أو حرب كالشريفين عبد الله بن الحسين والبركاتي في حملة الشريف الحسين بن علي إلى أبها عام (١٣٢٩هـ/١٩١١م)، وصنف ثالث مثل : فلبلي / وتوتيشل، وشيجر خدمهم الحظ حيث كانوا مدعومين من قبل حاكم المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل، فلم يجدوا صعوبة في جمع مادتهم العلمية، حيث كانوا محتفى بهم أينما نزلوا ومن ثم فرجال دولة ابن

(١) انظر تفصيلات أكثر في كتابه : عسير قبل الحرب العالمية الأولى ، PP. 15ff

(٢) للمزيد انظر: كتبهم ودراساتهم الرئيسية والمعنية في هذا البحث .

(٣) معظم الرحالة كانوا يسيرون على الطريق الساحلي، ومن ثم يشاهدون بلاد الساحل فقط، دون أن يعرفوا أو يروا حياة الناس في الأوطان الداخلية .

(٤) لم يذهب هذان الرحالان على الطريق البري في منطقة القنفذة، وكذلك الملك سعود بن عبد العزيز، كما ذكر العمودي فكانوا يسلكون البحر ويتوقفون في هذه الموانئ للراحة أو التزود ببعض الأمتعة .

(٥) وما ذكر الموسوي عن أهل القنفذة، وعدم إكرامهم للضيف يتعارض مع الواقع فهم غير ذلك، بل هم كرماء يرحبون بالغريب والضيف ويقومون على إكرامه . مشاهدات الباحث وجولاته في بلاد القنفذة من عام (١٤٢٤-١٤٣١هـ).

سعود بالبرك ومحال عسير إلى القنفذة ودوقة كانوا يبذلون قصارى جهودهم في تقديم العون وكافة المساعدات المطلوبة لهم، وبخاصة جون فليبي الذي حصل على فوائد ومميزات جيدة ليس في القنفذة وحسب وإنما في معظم أجزاء الجزيرة العربية^(١).

وإذا تفحصنا المنهج المستخدم في تدوين معلومات هؤلاء الرحالة وجدنا معظمهم يعتمدون - كما أشرنا - على الانطباعات والمشاهدات، بل نجدهم يتفاوتون فيما دونوا . فهناك من ذكر ملاحظات عابرة على ما شاهدوه في بلدة القنفذة، أو حلي بن يعقوب، أو دوقة، أثناء الذهاب والإياب في هذه النواحي، وآخرون أشاروا إلى نقاط معينة، مثل : كورنواليس الذي كان عمله ينصب على نقاط محددة يجب إدراجها في تقريره السياسي الاستخباراتي . وفريق ثالث أسهبوا في التفاصيل أمثال: محسن بن عبد الكريم، وإسماعيل جفمان، والشريف البركاتي، وفليبي، وولفرد شيجر، وعاتق البلادي فقد دونوا لنا الشيء الكثير عن جوانب عديدة في أبواب التاريخ السياسي والحضاري لمنطقة القنفذة، وأفضلهم تقريبا شيجر وفليبي فقد حفظا لنا مادة تاريخية متنوعة، وبأسلوب يمتاز بالجودة، مع العلم أنهما كانا يسألان أحيانا عن بعض النواحي أو الأشياء التي يرغبان معرفة معلومات عنها، إلا أنهما غالبا كانا يعتمدان على المشاهدة ودقة التفاصيل في جزئيات معينة، وبخاصة فليبي، الذي نجده أحيانا يفقد الربط بين أفكاره، فتراه مثلا يكتب عن مكان محدد أو عشيرة معينة، لكنه أثناء حديثه قد يخوض في تفاصيل دقيقة أخرى فيتحدث - مثلا - عن بعض الحشرات أو الطيور أو النجوم أو الآثار وغيرها من الأشياء التي شاهدها أثناء إقامته أو حديثه عن العشيرة أو المكان الذي يتحدث عنه^(٢).

٣- دراسة ومقارنة مدونات الرحالة :

أ- تعرض هؤلاء الرحالة موضوع الدراسة إلى الأحوال الجغرافية في بلاد القنفذة، فأشار معظمهم إلى طبيعة الأرض، وقربها من ساحل البحر الأحمر، والمحطات التجارية

(١) كل الرحالة الأجانب حظوا بالرعاية الجيدة من حكومة ابن سعود، لكن فليبي أفضل أوروبي على الإطلاق نال الرعاية والدعم الكبيرين في جميع رحلاته، ومن ثم خلف لنا كما هائلا من الكتب والدراسات القيمة عن الجزيرة العربية، بل يعد الأفضل والأكثر إنتاجا فكريا في هذا الباب خلال القرن (١٤ هـ / ٢٠ م) .

(٢) هذا ما يظهر على كتابات فليبي مع أن أسلوبه يمتاز بالرصانة والدقة، للمزيد انظر: ما دون عن منطقة القنفذة خلال زيارته لها . مرتفعات الجزيرة العربية، ج ٢، ص ١٢٦٣ - ١٢٢٢ . أنظر أيضاً محمد بن أحمد معبر . الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي . (الجزء الأول) .

الواقعة ضمن حدودها والمرتادة بالحجاج والمسافرين^(١). وعلى الرغم من ذكرهم لهذه الجوانب، إلا أنهم لم يكونوا على مستوى واحد فيما دونوه، فهناك من اكتفى فقط بالإشارة إلى ناحية أو معلم جغرافي، فيذكر ناحية أو بلدة بعينها مثل: حلي، أو البرك، أو القنفذة، أو دوقه وغيرها، ولا يضيف تفاصيل عن تضاريسها، أو مناخها، أو ثروتها الحيوانية والنباتية^(٢). وبعضهم مثل: كورنواليس، وفلبي، وولفرد شيجر، والبلادي ناقشوا الكثير من الجوانب الجغرافية المختلفة، مع أنهم أيضاً يتفاوتون في حجم ما رصدوه لكنهم جميعاً تعرضوا لهذا الجانب بشيء من التفصيل^(٣) لكن فلبي أكثرهم إسهاباً في الحديث عن أودية وجبال وهضاب القنفذة، كما أشار إلى أنواع الرياح والمناخ الذي كان يسود تلك البلاد، وتعرض أيضاً إلى طبيعة الحياة النباتية والحيوانية^(٤). والمعروف عن هذا الرحالة أنه زار مواطن عديدة في عسير وجازان ونجران بل في عموم شبه الجزيرة العربية، وهذا مما جعله أحياناً يقارن بين ما شاهده في القنفذة وبين تلك المناطق التي زارها من حيث المناخ والتضاريس والحياتان الحيوانية والنباتية، مع العلم أن حديثه عن تضاريس ومناخ بلاد القنفذة لم يكن مجموعاً في مكان واحد، وتحت عنوان محدد، وإنما تراه موزعاً في أماكن عديدة من التسع والخمسين صفحة التي سجلها عن هذه البلاد الساحلية^(٥). وربما يأتي شيجر من حيث الأهمية بعد فلبي في ذكر جوانب عديدة في الجانب الجغرافي^(٦).

بـ الشيء الجميل على مدونات هؤلاء الرحالة أنها تمتد على فترة زمنية تغطي تقريباً عشرة قرون، ولهذا عكسوا لنا إلى حد ما طبيعة الحياة السياسية التي كانت تعيشها بلاد القنفذة وما جاورها، فناصر خسرو أشار إلى طبيعة القبيلة وكيف كان شيوخها أصحاب الحل والعقد في بلادهم، ومنطقة القنفذة استوطنها العديد من العشائر القحطانية والعدنانية، ولا زالوا حتى اليوم يعيشون فيها، ومالكين لأرضها^(٧).

(١) هذا ما ذكره معظم رحالتنا، بل هم أنفسهم سلكوا الطريق البري، أو البحري الذي يصل بين اليمن والحجاز عبر منطقة القنفذة .

(٢) في الغالب كان هؤلاء الرحالة يشيرون في مدوناتهم إلى المواطن أو البلدان التي مروا عليها أثناء سفرهم في بلاد القنفذة، وكانت هذه الأماكن المذكورة أعلاه هي أهم المدن أو النواحي التي نزلوا فيها وشاهدوها .

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: مدونات كل من كورنواليس، وفلبي، وشيجر، والبلادي .

(٤) انظر فلبي: مرتفعات الجزيرة، ج ٢، ١٢٢٢-١٢٢٣ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) للمزيد انظر: ولفرد شيجر، "رحلة في تهامة عسير..." ص ٩٥ وما بعدها .

(٧) انظر: ناصر خسرو، ص ١٤٢. مشاهدات الباحث وجولاته في بلاد القنفذة خلال الفترة من ١٤٢٤-١٤٣١ هـ/ ٢٠٠٣-٢٠١٠ م. انظر الجزء الثاني من كتاب: الرحلات والرحالة في الجنوب السعودي،

لمحمد بن معبر .

ويشير ابن بطوطة إلى أمير حلي^(١). والمعروف أن حلياً جزء من منطقة القنفذة، وكان أمراء حلي أصحاب قوة ونفوذ في البلاد الممتدة من شمال المخلاف السليماني (جازان حالياً) إلى شمال بلدة القنفذة^(٢).

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كانت الدولة الرسولية في اليمن تمد نفوذها أحياناً إلى المخلاف السليماني والبرك وحلي وما جاورها، ولهذا كان السلطان الملك المجاهد، عندما نزل في بعض المواطن من ديار القنفذة يوزع الهبات والعطايا^(٣)، وإذا كان مدون رحلته لم يذكر أسماء من وزع عليهم الهبات، لكن لا نستبعد أن تكون على علية القوم والأعيان والشيوخ كي يشتري دعمهم ومساندتهم، ومن ثم يكونون موالين له بدلاً من أشراف مكة الذين كانوا دائماً يسعون للسيطرة على البلاد الواقعة جنوبي مكة والممتدة إلى حلي والبرك وما حولهما^(٤).

أما الفترة الزمنية الممتدة من القرن (١٠٨٠هـ / ١٧٠١م) فلا نجد أي رحالة جاء إلى بلاد القنفذة، ولا نستبعد أنها كانت في مد وجزر بين القوى السياسية المسيطرة على الحجاز واليمن آنذاك^(٥)، أما أجزاؤها الداخلية فتجزم أنها كانت تحت هيمنة شيوخها وأعيانها القبليين^(٦)، وذلك لبعدها إلى الداخل عن الطريق الرئيسي الساحلي، وكذلك لصعوبة تضاريسها وانعزال أهلها وشدة بأسهم^(٧). ويظهر الرحالة الموسوي

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ج ١، ص ٢٧١.

(٢) الزيلعي، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي..." ص ١١ وما بعدها، للمزيد من التفاصيل عن تاريخ بلاد حلي انظر: القسم الثاني من هذا الكتاب.

(٣) انظر: الثنيان "رحلة السلطان المجاهد..." ص ١٢٨ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، وللمزيد انظر: القسم الثاني في هذا الكتاب.

(٥) للمزيد من الاطلاع انظر: المصادر المحلية الحجازية واليمنية التي تؤرخ لفترة العصور الإسلامية الوسيطة، أمثال، الفاكهي، وابن ظهيرة، والفاصي، والعصامي، والخزرجي، والجندي، وعمارة اليمني، ومؤرخون آخرون ظهوروا في اليمن خلال عصر الدول الصليحية، وبني رسول، والزيدية وغيرهم.

(٦) سبب جزمنا هنا لأن من يستقري المصادر والمخطوطات الإسلامية المبكرة والوسيطة لا يجد أي ذكر لهذه الأوطان الداخلية، ولا يذكر في الغالب إلا ما يقع على طريق الساحل بين مكة والحديدة.

(٧) نقصد بذلك بلاد العرضيتين وما جاورهما من البلدان الواقعة عند سفوح السروات الغربية والممتدة من تهامة قحطان إلى تهامة الطائف وبني سعد. وهذه البلاد مازالت على هذا الوضع إلى العقود المتأخرة الماضية، وبعد أن بدأت التنمية تصلها صار أهلها يتدرجون في سلم التطور الحضاري حتى أصبحت بعض النواحي فيها تضاهي غيرها من البلدان والمواطن المتحضرة والقرية من مراكز التمدن منذ زمن بعيد. مشاهدات الباحث وتنقله في أرجاء هذه النواحي، بالإضافة إلى اطلاعه على العديد من الوثائق التي تؤكد ما ذهبنا إليه.

في القرن (١٢هـ/١٨م) فلا يذكر أي شيء عن الحياة السياسية في القنفذة^(١). وخلال القرنين (١٣هـ/١٩م) نجد العديد من الرحالة الذين يشيرون إلى وضع القنفذة السياسي ويذكرون نفوذ بعض الإمارات المحلية في عسير^(٢)، ثم النفوذ العثماني، ممثلاً في حكام بني عثمان في الحجاز وعسير، كيف كانوا أصحاب السلطة والنفوذ في ديار القنفذة^(٣)، وإذا وقعت بعض الصدامات العسكرية بين الحجازيين والعسيريين على أرض القنفذة، فالمحرك الرئيسي لتلك الحروب هو تلك القوى التابعة في كل من أبها ومكة المكرمة. وفي النصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) يظهر الإدريسي في منطقة جازان، ثم ابن سعود في نجد ولم تسلم بلاد القنفذة من تلك التبدلات السياسية، ونالها الكثير من الحروب والخسائر حتى استقرت أحوال الدولة السعودية الحالية^(٤)، وامتد نظام الأمن والعدل إلى منطقة القنفذة، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من هذه الدولة العصرية التي نعيش تحت ظلالها وننعم بخيراتها (المملكة العربية السعودية)^(٥)

واسماعيل جفمان، وكورنواليس، وبدول، والشريفان عبد الله والبركاتي، وشيخ، والعمودي، والبلادي جميعهم أشاروا إلى صورة سياسية متنوعة من حيث الكم والموضوع^(٦)، لكن أكثرهم تفصيلاً الشريفان عبد الله والبركاتي وكورنواليس وأحياناً فلبى فقد ذكروا بعض الحروب التي وقعت في القنفذة بين الشريف الحسين والإدريسي، كما ذكروا الكثير من التفصيلات عن أسماء بعض الأمراء أو شيوخ وأعيان القبائل الذين كان لهم أثر وقوة في بلادهم وما قدموا من عون ومساعدات للقوى السياسية التي وصلت إلى منطقتهم^(٧).

(١) الجاسر " مع الموسوي المكي في رحلته .. " ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) للمزيد عن تاريخ منطقة عسير خلال القرنين (١٣هـ/١٩م)، ودور بلاد القنفذة في ذلك التاريخ، انظر: على عسيري، عسير، (مطبوعات نادي أبها، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٦٧ وما بعدها، أحمد آل فائع، دور آل المتحمي، ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) ابن جريس، صفحات من تاريخ عسير، ج ١+٢، ص ١٢٠-٩١، ٢٧٤-٢٣٥، سعيد مفرح، الإدارة العثمانية في متصرفية عسير (رسالة ماجستير من جامعة الملك سعود، قسم التاريخ، ١٤١٧هـ)، ص ٢٩ وما بعدها .

(٤) للمزيد عن ظهور الإدريسي وابن سعود وامتداد نفوذهما إلى بلاد عسير والقنفذة، انظر: العقيلي، الخلاف، ج ٢، ص ٦١٩ وما بعدها، العثيمين، تاريخ المملكة، ج ٢، ص ٢٤٠-١٧٣، ابن جريس، عسير في عصر الملك عبد العزيز، ص ١٩ وما بعدها .

(٥) المصادر نفسها .

(٦) انظر إلى مدوناتهم المذكورة في هذه الدراسة .

(٧) المصادر نفسها .

ج- مدونات رحالتنا غنية بمعلوماتها في الجانب الاجتماعي، فلا يخلو أي واحد منهم من الإشارة لجانب وصورة اجتماعية مع التفاوت فيما وصلنا منهم، فناصر خسرو يذكر وضع قبائل جنوبي مكة المكرمة من حيث إدارتهم لبلادهم، وسيطرة النظام القبلي في أوطانهم^(١) وهذا الوضع السياسي الاجتماعي استمر إلى العصر الحديث فكورنواليس، وبدول، والشريفان (البركاتي، وعبد الله)، وقلبي، وشيجر، والبلادي، أشاروا إلى الوضع نفسه مع الفارق في العرض والتحليل^(٢). فغلب على مدونة خسرو القدم التاريخي والعمومية فلم يحدد ناحية أو بلادا بعينها^(٣)، بخلاف الرحالة المحدثين (ق ١٣.١٤هـ / ١٩.٢٠م) فجميعهم يؤكدون على سطوة وهيمنة القبائل في بلاد القنفذة، بل بعضهم فصل الحديث عن موقع كل قبيلة، وعدد سكانها، وما قامت به في بعض الأدوار السياسية والحربية التي وقعت في بلاد القنفذة خلال القرن (١٤هـ / ٢٠م)^(٤).

وقد وقع بعض منهم في أخطاء كثيرة مثل: كورنواليس، والشريفان، وقلبي، والبلادي عندما دونوا إحصائيات لسكان بعض العشائر أو البلدان في منطقة القنفذة^(٥). وهذه مهمة صعبة لأنهم اعتمدوا في جمع معلوماتهم على رواة محليين، وغالباً مثل هؤلاء الرواة يختلفون في الثقافة أو الرغبات والأهواء، ومن ثم فقد يعطون معلومات مغلوطة، وهذا فعلاً ما وقع مع هؤلاء الرواة، ومثل هذه المشكلة مازالت تقع معنا منذ عقود ونحن نتجول في أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة جنوبها^(٦). ثم إن بعض هؤلاء الرحالة أجنبي ويجهل الكثير من عادات ومصطلحات أهل البلاد، وهذا مما يضاعف الوقوع في أخطاء علمية كبيرة^(٧).

(١) خسرو، ص ١٤٢

(٢) خسرو، المصدر السابق .

(٣) انظر: مدونات الرحالة المعنيين في المتن وهي مذكورة في أول هذا البحث .

(٤) مثل : كورنواليس، والشريفان : البركاتي وعبد الله، والبلادي .

(٥) انظر مدوناتهم المعنية في هذه الدراسة .

(٦) هذا ما لمس الباحث وما زال يعاصره من خلال رحلاته وتنقلاته في مناطق الباحة وجازان ونجران وعسير والطائف وغيرها منذ أكثر من أربعة عقود .

(٧) مثل : كورنواليس وقلبي، مع أن البلادي والشريفان من سكان الحجاز وعلى علم بأحوال وأهل منطقة القنفذة لكنهم وقعوا في أخطاء عديدة عندما ذكروا بعض الأرقام والإحصائيات لبعض العشائر والبلدان القنفذية .

كانت القبيلة العربية هي الشريحة الاجتماعية الرئيسية التي تسوس بلاد القنفذة، لكن قبائل هذه الديار تختلف في أنسابها فمنها العدنانية وأخرى قحطانية، وقد ذكر بعض رحالتنا وجود شرائح أخرى غير عربية مثل : الأفارقة والأتراك والهنود وغيرهم^(١).

وهذا أمر معروف للقنفذة فهي من الموانئ الرئيسية على البحر الأحمر ويرتادها الكثير من الأجناس العربية وغير العربية، وربما البعض من الصنف الثاني كانوا يقيمون في هذه البلاد، ومع مرور الزمن أصبحوا من فئات المجتمع القنفذي^(٢).

أما القرى وهيئة المنازل والأبنية في بلاد القنفذة فقد أخذت حيزاً جيداً عند معظم رحالتنا، ومدينة القنفذة حصلت على النصيب الأكبر، فالسلطان الملك المجاهد يذكر المحطات التي مر عليها مثل بلدة قنونا^(٣)، ثم يأتي جفمان، وكورنواليس، والبركاتي، وقلبي، وتوتيشل، والعمودي، والبلادي فيذكرون ما شاهدوا من أبنية في هذه البلدة، وبعضهم فصل الحديث عن مواد البناء، وأنواع الأبنية مثل : المنازل، والمساجد، والقلاع العسكرية، وأحياناً عدد الطوابق لبعض البيوت، وأثاثها، أو المرافق المحيطة بالمنزل سواء كانت من الحجارة، أو القش وسعف النخيل^(٤). والغالب على بلدة القنفذة في القرن (١٣هـ/١٩م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ/٢٠م) البساطة فكانت مدينة متواضعة في كل إمكاناتها العمرانية^(٥) لكن منذ بداية القرن (١٥هـ/٢١م) بدأت العمارة الحديثة تنتشر في منطقة القنفذة حتى أصبحنا نرى الكثير من العمارات والأبنية الضخمة^(٦).

(١) للمزيد انظر جفمان، ص ٦٥ وما بعدها، كورنواليس، PP. 23 ff، البركاتي، ص ٤٢ وما بعدها، قلبي، ج ٢، ص ١٢٩٣، ولفرد شيجر، ص ٩٩-١٠٠، ١٠٣.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) الثنيان "رحلة السلطان.. ص ١٢٠.

(٤) للمزيد عما ذكر معظم رحالتنا عن بلدة القنفذة انظر، جفمان، الرحلة، ص ٦٥، كورنواليس، P. 34، البركاتي، ص ٤٢-٤٣. قلبي، ج ٢، ص ١٢٩٢-١٢٩٣، الحبشي، الرحالة، ص ١٥٥. تفصيلات جيدة عن العمارة في بلدة البرك. انظر: مرتفعات، ج ٢، ص ١٢٦٩. للمزيد عن رحالة آخرين أشاروا إلى العمارة في القنفذة انظر: توتيشل، ص ٧٨، العمودي، ص ٦١٠، البلادي، ص ١١٢.

(٥) المصادر نفسها.

(٦) انظر : البلادي الذي زار القنفذة في بداية القرن (١٥هـ/٢١م). مشاهدات الباحث وزياراته للقنفذة (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

ويشير بعض رحالتنا إلى بعض الألبسة وأدوات الزينة التي شاهدوا أهل القنفذة يلبسونها في مزارعهم ومساجدهم وأسواقهم^(١)، إلا أن لفرد شيجر يعتبر أكثرهم تفصيلاً من حيث ذكر بعض الألبسة التي كان يستخدمها الرجال والنساء والأطفال، وبخاصة في مناطق القنفذة الداخلية مثل: بلاد العرضيتين، وأجزاء من بلاد حلي^(٢).

وأحياناً كان ابن بطوطة، ومحسن بن عبد الكريم، وجفمان، والشريف البركاتي، وقلبي، والبلادي يذكرون بعض الأطعمة والأشربة التي شاهدوها في أسواق أو نواحي من القنفذة، بل بعضهم تناولها^(٣). لكن قلبي وشيجر والبلادي ساعدتهم الظروف التي جاؤوا فيها، فقد قضوا بعض الوقت في أجزاء عديدة من المنطقة، كما تم استضافتهم على أكثر من وجبة أو مناسبة أو وليمة في بيوت بعض الأمراء والأعيان في أوطان القنفذة، ومن ثم أعطوا تفصيلات لا بأس بها عن بعض المأكولات التي كانت تقدم على الموائد في تلك البلاد^(٤). وإذا كان ذكر بعض أسماء الأطعمة والأشربة في بيوت المقتدرين مادياً من الناس، فإن غالبية المجتمع القنفذي كانوا فقراء، وأغلب أطعمتهم من الحبوب التي تنتجها أراضيهم، أو من منتجات حيواناتهم التي يقومون على تربيتها^(٥).

وقد تخلل مدونات بعض الرحالة إشارات إلى بعض العادات والتقاليد السائدة في القنفذة مثل: عادات الزواج، والختان، وبعض الفنون الشعبية التي عرفها أهل المنطقة، وغيرها كثير^(٦). لكن لفرد شيجر أفضل من دون الكثير من التفصيلات في هذا الباب، والجميل في مدوناته أنه تميز على غيره في ذكر تقاليد وأعراف وعادات عند سكان البوادي والقرى الداخلية من بلاد القنفذة، وهذا العمل يعد سبقاً علمياً

(١) انظر: ابن بطوطة، ج ١، ص ٢٧١.

(٢) لفرد شيجر، ص ٩٧، ١٠٢، ١٠٣. دراسة تاريخ اللباس والزينة في جنوبي البلاد السعودية جدير بالبحث والدراسة، وهو فعلاً من الموضوعات الحضارية الجيدة ومن يدرس هذا الموضوع فإنه سوف يضيف للمكتبة العربية والإسلامية موضوعاً علمياً هاماً وجيداً.

(٣) ابن بطوطة، ج ١، ص ٢٧١، جفمان، الرحلة، ص ٦٥، ٦٦، ٦٩، البركاتي، ص ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٦١، قلبي، مرتفعات، ج ٢، ص ١٢٦٩، البلادي، ص ٩٣ وما بعدها.

(٤) للمزيد انظر: قلبي، ج ٢، ص ١٢٦٩، لفرد شيجر، ص ٩٧، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، البلادي، ص ٩٦ وما بعدها.

(٥) المصادر نفسها. طالعنا الكثير من الوثائق غير المنشورة التي تشير إلى محدودية الأطعمة والأشربة في عموم بلاد القنفذة، أما في مواطن التمدن مثل: بلدة القنفذة، وحلي، والبرك، فكانت الأطعمة المحلية والمستوردة تتوفر بها إلى حد ما. المصدر: مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (الوثائق العامة).

(٦) دراسة عادات وتقاليد بلاد تهامة الممتدة من جازان إلى مكة جديرة بالبحث والدراسة، حبذا أن نرى من طلابنا وطلابائنا في برامج الدراسات العليا من يطرق مثل هذه الأبواب الغنية في مادتها والجديدة في طرحها.

رائداً وبخاصة بين الغربيين الذين جاؤوا إلى بلاد تهامة والسراة خلال القرون الماضية المتأخرة^(١).

د. أما باب الاقتصاد فقد حظي بنصيب جيد عند بعض الرحالين مثل: يحيى بن المطهر، وجفمان، وكورنواليس، والبركاتي، وفلبي، وئسيجر، والبلادي، فذكروا بعض النشاطات التجارية، وبخاصة في بلدة القنفذة^(٢). وجفمان، وفلبي وئسيجر أسهبوا عن وضع بعض الأسواق، والسلع التي ترد إليها، والأسعار، وئسيجر فصل إلى حد ما وضع بعض الأسواق والسلع التي ترد إليها، والأسعار، والأوزان، وطرق التعامل^(٣). أما كورنواليس فقد أشار إلى الطرق التي تربط منطقة القنفذة مع غيرها، فذكر أسماءها ومحطاتها والسكان الذين يعيشون على أطراف تلك الطرق^(٤)، مع الإشارة إلى بعض العقبات التي تقع على تلك الطرق^(٥).

ويشير بعض الرحالة إلى وجود مهن اقتصادية أخرى في القنفذة، مثل: الرعي والزراعة وبعض الحرف الصناعية التقليدية^(٦). لكن ولفرد ئسيجر يعد أفضلهم في ذكر هذه النقاط، حيث فصل الحديث إلى حد ما في بعض المهن، وأشار إلى وفرة الزروع والمزروعات في البلاد، وشاهد العديد من الصناعات والحرف اليدوية التي كانت تمارس في نواح من المنطقة^(٧).

(١) انظر: ولفرد ئسيجر، ص ٩٥ وما بعدها.

(٢) جفمان، الرحلة، ص ٦٤-٦٦، كورنواليس، PP. 136ff، البركاتي، ص ٤٢-٤٣، فلبي، ج ٢، ص ١٢٩٢-١٢٩٣، الحبشي، ص ٩٥-١٠١.

(٣) ولفرد ئسيجر، ص ٩٥ وما بعدها.

(٤) كورنواليس، PP. 136 ff.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) جفمان، الرحلة، ص ٦٤ وما بعدها، كورنواليس، PP. 34 ff، البركاتي، ص ٤٢ وما بعدها، فلبي، ج ٢، ص ١٢٦٥ وما بعدها، ولفرد ئسيجر، ص ٩٤ وما بعدها.

(٧) ولفرد ئسيجر، ص ٩٦ وما بعدها.

رابعاً : الخلاصة :

خلاصة القول إن هؤلاء الرحالة جاؤوا في فترات متباعدة إلى منطقة القنفذة وما جاورها لأهداف وأغراض حضارية وسياسية مختلفة، وإذا كانت الظروف السياسية والحربية دفعت الشريفين البركاتي، وعبد الله بن الحسين (ليأتيا مع جيش الشريف الحسين إلى بلاد عسير، فربما لم يكن ذلك مدروساً من قبل ليدونا رحلتيهما عن هذه المنطقة، وذلك الوضع مع كل من ابن بطوطة، والسلطان المجاهد، ومحسن بن عبد الكريم، وإسماعيل بن جفمان، فجميعهم عبروا من بلاد القنفذة بهدف أداء مناسك الحج، أو الرجوع من مكة إلى بلاد اليمن، كما حدث لكل من ابن بطوطة والسلطان المجاهد، ومن ثم فقد ذكرت القنفذة في مدوناتهم بشكل عابر ومختصر .

أما كورنواليس، وفلبي، وتوتيشل، وشيجر فقد جاؤوا بدعم من قوى سياسية مختلفة لجمع وتدوين معلومات عن نواح عديدة من جنوبي شبه الجزيرة العربية، والقنفذة جزء صغير من تلك البلاد . فكورنواليس جاء بدعم من قوى استعمارية هي الإمبراطورية البريطانية، في حين أن فلبي، وتوتيشل، وشيجر جاؤوا بدعم من ملك المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، أما البلادي فقد جاء إلى القنفذة بدافع السفر والاطلاع والتدوين . وكون الظروف والأهداف التي جاء من أجلها أولئك الرحالة متنوعة، إلا أننا - معشر المؤرخين والباحثين والدارسين - قد استفدنا كثيراً من المعلومات القيمة التي سجلها هؤلاء الرحالة، التي نادراً ما نجدها في مصادر أخرى، فقد ألقت الكثير من الأضواء على نواح مجهولة من تاريخ وحضارة بلاد القنفذة، وبخاصة أن هذه المنطقة في حد ذاتها فقيرة في معلوماتها، وفيما دون عنها سواءً قديماً أو حديثاً، لكن الحصول على بعض الشيء أفضل من لا شيء . وإنني أمل أن تفتح هذه الدراسة أبواباً أوسع لطلاب البحث العلمي فتدرس الكثير من الظواهر والجوانب التاريخية والحضارية المتنوعة، والشيء الذي لاشك فيه أن هذه الديار مازالت بكراً إن صح التعبير، فهناك كثير من أوضاعها العلمية الهامة التي هي بحاجة إلى البحث والتقصي والدراسة . والله من وراء القصد .